مفهوم الانعكاسية في الحقل الأكاديمي: رؤى سوسيولوجية ومؤشرات تطبيقية

"الجزء الأول"

The Concept of Reflexivity in the Academic Field: Sociological Insights and Practical Indicators

إعداد

أ.د/ عبدالوهاب جودة الحايس

Prof. Abdelwahab Gouda ElHayes

أستاذ علم الاجتماع – كلية الآداب – جامعة عين شمس

Doi: 10.21608/ajahs.2024.385061

استلام البحث ١٨ / ٧ / ٢٠٢٤

قبول البحث ١٣ / ٨ / ٢٠٢٤

الحايس، عبدالوهاب جودة (٢٠٢٤). مفهوم الانعكاسية في الحقل الأكاديمي: رؤى سوسيولوجية ومؤشرات تطبيقية. ***المجلة العربية للآداب والدراسات الإنسانية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٨(٣٣)، ١ – ٣٨.

http://ajahs.journals.ekb.eg

مفهوم الانعكاسية في الحقل الأكاديمي: رؤى سوسيولوجية ومؤشرات تطبيقية "الجزء الأول"

المستخلص:

تعالج هذه الورقة العلمية أحد أهم المفاهيم النظرية السائدة في علم الاجتماع الحديث، وهو مفهوم الانعكاسية وتطبيقاته في الحقل الأكاديمي، في إطار الخصائص المميزة لمرحلة التطور في النظام العالمي الأن، والتي بدات منذ منتصف القرن العشرين لتميز عالمنا المعاصر الآن عما سبقه من مرحلة الحداثة الصناعية، وقد أطلق عليها المنظرين السوسيولوجين "مرحلة الحداثة المتأخرة"، والتي تستهدف قدرة المجتمعات على مواجهة المخاطر العالمية الناتجة عن التقدم العلمي والتكنولوجي الفائق، باستخدام آلية أو أداة " الانعكاسية" المتمثلة في الوعي الذاتي، والقدرات الذاتية التي تستخدم في نقد ومراجعة الذات وتقييمها ومحاولة تعديلها وفق الهدف المنشود. ومن هذا المنطلق، فقد تم مناقشة فترات تطور الحداثة منذ البداية، مرورا بالحداثة الصناعي، وصولا إلى تشخيص ملامح الحداثة الانعكاسية. بالإضافة إلى محاولات استعراض مختلف المقاربات النظرية السوسيولوجية لمفهوم الانعكاسية وأسسها النظرية وفق منظور كل مفكر من مفكري العصر الحديث في السوسيولوجيا، علاوة على التعمق في عرض رؤية بيير بورديو باعتباره المنظر السوسيولوجي الأبرز في تطبيق الانعكاسية على الحقل الأكاديمي.

الكلمات المفتاحية: الحداثة ، الحداثة الانعكاسية، الانعكاسية ، الحقل الأكاديمي ، السوسيولوجيا الانعكاسية.

Abstract:

This research paper addresses one of the most prominent theoretical concepts in modern sociology, which is the concept of reflexivity and its applications in the academic field. It does so within the framework of the distinctive characteristics of the current phase of development in the global system, which began in the mid-20th century and differentiates our contemporary world from the previous industrial modernity phase. Sociological theorists have termed this phase “late modernity,” which emphasizes societies’ ability to confront global risks resulting from advanced scientific and technological progress through the mechanism or tool of “reflexivity.” Reflexivity is represented by self-awareness and the ability to critique, review, and assess oneself to modify behavior according to the desired goal. From

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

this perspective, the paper discusses the stages of modernity's evolution, from its beginnings, through industrial modernity, to the diagnosis of reflexive modernity's features. In addition, it reviews various sociological theoretical approaches to the concept of reflexivity and its theoretical foundations from the viewpoint of each modern thinker in sociology, with a particular focus on the vision of Pierre Bourdieu, considered the most prominent sociological theorist in applying reflexivity to the academic field.

Keywords: Modernity, Reflexive Modernity, Reflexivity, Academic Field, Reflexive Sociology.

مقدمة: موضوع الورقة وأهميتها

يمر المجتمع العالمي منذ العقد الأخير من القرن الماضي بمجموعة من التغيرات البنيوية على كافة الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والبيئية، تلك التغيرات التي مست كافة البنى الاجتماعية، ليتحول العالم إلى الفرداينة أكثر، والبعد عن المرجعيات المجتمعية، ويتخذ المجتمعات والأفراد مكانة أكبر مما مضى في القدرة على الاعتماد على الذات في اختياراتهم، وتحمل عواقب الاختيار، بالإضافة إلى محاولات التمكن من مواجهة الأخطار المصاحبة للتقدم العلمي والتقنولوجي السريع. هذا الوضع أضفي على المجتمع العالمي صفة أطلق عليه العلمي والمفكرين " الانعكاسية" في ظل مرحلة متطورة من الحداثة، أطلقا عليها الحداثة المتقدمة أو المتأخرة " الحداثة الانعكاسية".

ونحن في هذه الورقة العلمي، نحاول التأصيل العلمي لمفهومي: الانعكاسية، والحداثة الانعكاسية، ومدى تطبيقاتها في مختلف مجالات الحياة وعلى مستوى البنى الاجتماعية المختلفة، أو على مستوى الحقول الاجتماعية بتعبير بيير بوردية المنظر الأبرز لهذا المفهوم، سيما في تطبيقاته على الحقل الأكاديمي أو العلمي؛ ذلك أن الانعكاسية تمثل إحدى الأدوات الأساسية في الحقل العلمي، حيث تشير إلى القدرة على النظر النقدي والوعي الذاتي خلال عملية البحث. تتجلى الانعكاسية في وعي الباحث بتأثير مواقفه الشخصية، خلفيته الاجتماعية، وتحيزاته على جميع مراحل البحث العلمي. كما تعد الانعكاسية من الركائز الأساسية التي تدعم التفكير النقدي في الحقل العلمي، خاصة في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

ويُقصد بالانعكاسية قدرة الباحث على إدراك وتحليل تأثيره الشخصي، الاجتماعي، والثقافي على مختلف مراحل البحث العلمي، بدءًا من اختيار موضوع

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

البحث، مرورًا بجمع وتحليل البيانات، وصولًا إلى تقديم النتائج. هذا الوعي الذاتي يجعل الباحث أكثر قدرة على التحكم في تحيزاته وفهم كيفية تأثير تجربته الذاتية ومرجعيته الفكرية على الطريقة التي يصوغ بها أسئلته البحثية أو تحليله للبيانات. لقد كان ينظر إلى الباحث في البحوث العلمية التقليدية على أنه كيان مستقل وموضوعي، لكن مع تزايد استخدام البحوث النوعية، أصبح من الواضح أن الباحث لا يمكنه أن يكون منفصلاً تمامًا عن العملية البحثية. بل إن وجوده وتأثيره على المشاركين وبيئة البحث أمر لا مفر منه. لذا، جاء مفهوم الانعكاسية ليشدد على أهمية إدراك هذا التفاعل والتعامل معه بوعي نقدي. وكما يشير بعض الباحثين، فإن "الباحث لا يمكنه أن يكون مجرد مراقب محايد، بل يلعب دورًا في إنتاج المعرفة التي يجمعها ويفسرها (Finlay, 2020, p. 45). كما تعزز الانعكاسية مصداقية البحث العلمي، فمن خلال ممارسة الباحث للانعكاسية، يستطيع تعزيز الشفافية والنزاهة العلمية؛ ذلك أن إدراك التأثيرات الشخصية، مثل الخلفية الثقافية والمواقف الذاتية، خطوة ضرورية لفهم تعقيدات البيانات المستمدة من المشاركين في البحث، كما تساعد الانعكاسية في تقليل احتمالات التحيز أو التفسير غير الدقيق للنتائج، وذلك من خلال الاعتراف بالدور الذي يلعبه الباحث نفسه في هذه العملية.

والمتأمل في طبيعة وخصائص الحقل الأكاديمي في مجتمعاتنا العربية الآن، يجد حالة من الفوضى المنظمة في إنتاج المعرفة ، فعلى الرغم من سهولة الوصول إلى البيانات والمعلومات، والانفتاح على كافة مصادر المعرفة، والوصول للبيانات الضخمة، وتوافر أدوات الوصول الحر لتلك البيانات – تحت خاصية العلم المفتوح – إلا أن أغلب الباحثين في مختلف التخصصات يفتقدون إلى الدقة في إعداد البحوث العلمية، والاستسهال في انجاز العمل دون الاكتمال، والاعتمال على النقل والنسخ دون تدقيق، وشكوى الغالبية من الأساتذة من ضعف البحث العلمي، وطغيان الأيديولوجيا في مضامين بحوث العلوم الاجتماعية، وافتقاد الغالبية للشفافية والنزاهة العلمية (الحايس، ٢٠٠٢، والحايس، ٢٠١٠). وتكشف ملاحظاتنا حول ما يسود في الحقل الأكاديمي، خاصة حقل السوسيولوجيا، وما يميز المناخ الاجتماعي والأكاديمي في أقسامه العلمية، يجد حالة من البعد عن الالتزام الاكاديمي، وضعف الوعي الذاتي بالبحث العلمي واجراءاته الموضوعية، والافتقاد إلى الموضوعية، وتحول الغالبية من الباحثين إلى فاعلين مشاغبين، حيث تسود الخلافات والنزاعات والمشاجرات أحيانا، والتنمر أحيانا أخرى، وتحويل القسم العلمي إلى ساحة للنزاع والتكالب على اقتناص المصالح، ومن ثم البعد عن العمل العلمي الحقيقي الذي يؤدي إلى الوصول للاكتشافات العلمية، وأصبحت كل الممارسات داخل الحقل العلمي ذاتية وبعيدة عن الموضوعية.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

ومن هذا المنطلق روادتني منذ فترة طويلة الكتابة والبحث حول الآلية المهمة التي تمكننا وتمكن باحثينا من الوعي بها، في محاولة لانقاذ الحقل الأكاديمي وإعادة توجيه مساره إلى الوجهة السليمة، عندما يعي ويمتلك الباحثين لمهارات الممارسة الانعكاسية في العلم. مسترشدين بالأسس النظرية للطروحات العلمية لرواد الفكر السوسيولوجي. وعلى ذلك تهدف هذه الورقة إلأى الوقوف على مفهوم الانعكاسية، والحداثة الانعكاس ، وخصائصها، والمقاربات النظرية للرواد في هذا المجال، وتقصي أراء مهرات البحث الانعكاسي من خلال ما طرحه رائد الانعكاسية في العلم " بيير بوردو"، وانتهاء بالوقوف على مؤشرات الانعكاسية بشكل عام، ومؤشراتها في العلمي بشكل خاص، تمهيدا لمحاولات قادمة يمكننا من خلالها الوصول إلى مقياس دقيق وفق أسس محكمة علميا لقياس مستوى الانعكاسية في الحق الأكاديمي بمجتمعاتنا العربية. وقد اتبعت في اعداد هذه الورقة العلمي: الاتجاه الكيفي في البحث، معتمدا على الأسلوب التحليلي لكتابات المفكرين والعلماء حول مفهوم الانعكاسية، وما طرحوه من معان وأفكار وتأويلات حول المفهوم، وما عرضوه من مجالات تطبيقية في مجال العلم والحقل الأكاديمي، مرتكزا على تقنية قراءة الخطاب لكتابات الرواد، والكشف عما يقصدونه بمضمون ومعنى المفهوم ومؤشراته الواقعية القابلة للقياس.

أولا: مفهوم الانعكاسية

مصطلح الانعكاسية في العلوم الاجتماعية أكثر تعقيدًا إلى حد ما ، حيث استخدمه منظّرون مختلفون للإشارة إلى ظواهر مختلفة وفقًا لما يُفهم منه كل من موضوع وموضوع التفكير. ويمتد تاريخ الانعكاسية في علم الاجتماع إلى فترة طويلة مقارنة بتاريخها في الأنثروبولوجيا، وكمصطلح اجتماعي ، فقد ظهر لأول مرة في عمل Talcott Parsons، حيث يشير إلى قدرة الفاعلين الاجتماعيين في المجتمعات الحديثة على أن يكونوا واعين وقادرين على تقديم تقييمات حول أفعالهم، وتم تطوير هذا الاستخدام من قبل أنتوني جيدينز، الذي جادل بأن إحدى الخصائص الرئيسية للحداثة المتأخرة هي الأهمية المتزايدة للإنعكاسية بهذا المعنى على المستوى الفردي والمجتمعي في أواخر الحداثة ، كما جادل بأن معظم جوانب النشاط الاجتماعي تخضع للمراجعة المستمرة في ضوء المعلومات أو المعرفة الجديدة (علم الاجتماع نفسه هو مصدر رئيسي لمثل هذه الانعكاسية على مستوى المجتمع). وبالمثل، يجب على الفاعلين الاجتماعيين الفرديين مراجعة هوياتهم باستمرار في ضوء الفئات الاجتماعية المتغيرة.

الانعكاسية مفهوم فلسفي واجتماعي يشير إلى قدرة الفرد أو المجتمع على مراجعة أفكاره وسلوكياته، والاعتراف بتأثير هذه الأفكار على ذاته وعلى العالم من حوله. وتعد الانعكاسية عملية تفكير عميقة تمكن الإنسان من تحليل تجربته الذاتية

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

وتفاعلاته مع الآخرين بشكل نقدي؛ بهدفتحسين فهمه للواقع وإدراكه للعوامل المؤثرة على أفكاره وتصوراته. إنها تعني القدرة على التفكير في الذات والعالم المحيط بها بطريقة تحليلية ونقدية. ويرتبط هذا المفهوم ارتباطًا وثيقًا بأفكار الفيلسوف الألماني جورج هيجل حول الوعي الذاتي، الذي يعبر عن قدرة الفرد على إدراك نفسه كمصدر للتجربة والتأثير. وتفهم الإنعكاسية في السوسيولوجيا كآلية لفهم كيف تُبنى الهويات الفردية والجماعية وكيف تتأثر بالتفاعلات الاجتماعية (Giddens, 1991, p. 45). والأفراد الذين يتمتعون بقدرة انعكاسية عالية يمكنهم تحليل تجاربهم والتفكير في كيفية تأثير القيم الاجتماعية والثقافية على تصوراتهم وسلوكياتهم. فبالنسبة لعالم الاجتماع، يتمثل هذا الوضع الانعكاسي في الخضوع لتحليل نقدي عام، لايقتصر على ممارساته الأكاديمية فقط (العمليات والأدوات والمسلمات)، ولكن يمتد إلى الظروف الاجتماعية لأي انتاج فكري.

وقد أضفي عالم الاجتماع هارولد جارفنيكل Harold Garfinkel على المفهوم معنى آخر ليعني به: العملية التي يتم من خلالها إنشاء النظام الاجتماعي من خلال حالات مخصصة لممارسة المحادثة. كما طوره عالم الاجتماع الأمريكي "ألفين جولدنر " في سياق علم الاجتماع الانعكاسي، يدعوا من خلاله فحص اجتماعي للنظام نفسه كجزء من "علم الاجتماع الراديكالي" التحرري. وقد وصل النضج العلمي للمفهوم على يد المنظر الأكثر ارتباطًا بعلم الاجتماع الانعكاسي بهذا المعنى " بيير بورديو" في أعماله العلمية، حيث ينظر إلى الانعكاسية على أنها أجندة استراتيجية، أي استخدام أدوات الانضباط من أجل إزالة الغموض عن علم الاجتماع باعتباره ممارسة اجتماعية مشبعة بالسلطة (Science Encyclopedia Science & Philosoph,).

والانعكاسية من منظور علم الاجتماع: فعل ذو مرجعية ذاتية (فردانية)، حيث يعود الفعل والاختيار إلى خصوصية الفرد، أي أن الانعكاسية تشير إلى قدرة الفرد على التعرف على قوى التنشئة الاجتماعية. ومن هنا، ففإن انخفاض مستوى الانعكاسية يؤدي إلى نشوء فرد محكوم بيئته أو مجتمعه. والمستوى العالي من الانعكاسية الاجتماعية يكون الفرد هو الفاعل الأقوى، حيث يشكل هو المعايير، والرغبات الخاصة، والأذواق بنفسه، إنه يصل إلى الاستقلال الذاتي. وعلى ذلك، فإن طبيعة علم الاجتماع وموضوع دراسته فإنه ينتمي بالضرورة إلى العلم الانعكاسي؛ لأنه يتضمن ما يفضله العلم الإيجابي: الفاعل والمراقب، والمعرفة والوضع الاجتماعي، وسياق البحث ومجال الرصد والتسجيل الاجتماعي، ومفاهيم الفطرة السليمة والنظرية الاجتماعية. هذا الوضع يبدو ضروريا للغاية؛ لأن عالم الاجتماع يواجه أفراد انعكاسيين. وعلى الجانب الآخر، يرى بعض علماء الاجتماع أن الانعكاسية بعدا وجوديا عاما ومميزا لأفراد الحداثة المتأخرة (الحداثة الانعكاسية).

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

هذا الظرف الحداثي الذي يعد ظرفا تنتقد فيه المعرفة نفسها باستمرار، وظرفا اجتماعيا يتسم بافتقاد أشكال الحياة التقليدية (الأسرة، والدين... الخ) سيطرتها على الأفراد. وقد طرحت الإنعكاسية كمعضلة منهجية أو قاعدة منهجية (مبدأ منهجي)، فهي تنطوي على عملية ذاتية من استقصاء الإدراك الذاتي ودراسة السلوك الاجتماعي. بمعنى أكثر وضوحا، الانعكاسية هي ملك للفعل الاجتماعي ، ذلك الفعل الذي يعود ليؤثر على الفاعل والعكس من خلال عودة دائمة بين وصف الفعل والفعل نفسه (حميدات، ٢٠٢١، صص ٣٠١-٣٢٤)

ثانيا: الحداثة "النشأة والتطور"

ارتبطت الحداثة باعتبارها ظاهرة في تاريخ الفكر الإنساني بعدة ممارسات وظواهر انسانية، جعلت منها ''حقبة زمنية'' من حقب التاريخ الإنساني، ليتم التأريخ للعصور السابقة عليها بحقبة "ماقبل الحداثة"، والإشارة إلى الفترة التي تلتها، بحقبة ''ما بعد الحداثة. وقد أشار عالم الاجتماع الروسي "سيرجي كرافشينكو .Sergey A Kravchenko" في دراسة له أن الحداثة مرحلة تاريخية جديدة من التطور الاجتماعي والثقافي للمجتمع. كما أشار المفكر العربي؛ عبد الإله بلقيزيز، أن"الحداثة ظاهرة في تاريخ الفكر الإنساني، حملت معنى محدد في وعي من استقر على وصفها "بالحداثة"، بأن ميز ذلك الوعي بين منظومة الحداثة الفكرية، وما سبقها من لحظات فكرية؛ مثل حقبتي عصر الإصلاح وعصر النهضة، واستمر العرف جاريًا على تعيين خصائصها بالشكل الذي يخرجها من دائرة الاشتراك في الشبه "بما قبل الحداثة "و"مابعد الحداثة. واتضح في موسوعة علم النفس أن "الحداثة" - في الاستخدام الشائع - هي "الحالة الاجتماعية والثقافية والفكرية التي تساعد في التركيز على ما هو بارز حول المجتمع الغربي"، ويتم استخدام مفهوم "الحداثة؛ كتعبير عن حالة العالم، وغالبًا كتعبير بديل للرأسمالية، والتصنيع، والعقلنة، والعلمنة، ومجتمع الإعلام والاتصال، أو غيرها من سمات إيديولوجية أو مؤسسية أخرى يُعتقد أنها تميز المجتمع الغربي، وذلك في مقابل العصور السابقة، أو الحضارات الأخرى الموجودة الأكثر بدائية (جناوي، ٢٠١٨، ص ٢٤٠). وتعرف الموسوعة الدولية للجغرافية البشرية؛ أن" :الحداثة تشير إلى مجموعة قوية من العلاقات الثقافية والسياسية والاقتصادية والمكانية، والتي أثرت بشكل أساسي على طبيعة الحياة الاجتماعية، والاقتصاد، واستخدام وتجربة الزمان والمكان، والتي تشمل خصائص مرتبطة بكل هذه العلاقات.

والحداثة "كمفهوم " لم توجد في لحظة تاريخية محددة في أوربا الغربية، وإنما استغرقت عدة قرون حتى بلغت مرحلة النضج، ومن هذا المنظور التاريخي، فإن "الحداثة "ليست قرارًا سياسيًا أو نظرية وضعها فيلسوف، وإنما واقع تاريخي وتطور فكري وسياسي واجتماعي وحضاري شامل، وصلت من خلاله المجتمعات

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الأوربية إلى درجة من التقدم في التاريخ الحديث والمعاصر. وقد جادل بعض المفكرين البارزين بأن الحداثة كمشروع كبير قد انتهت خلال النصف الأخير من القرن العشرين، لتظهر حالة " **ما بعد الحداثة**". وإن كان البعض من المفكرين أبدوا رفضهم لهذا المصطلح، مؤكدين أن الحداثة انتقلت إلى مرحلة متقدمة أطلقوا عليها " الحداثة المتأخرة".

ويرى هارفي David Harvey أن الحداثة تقوم على فكرة تراكم المعرفة الذي وفره مفكرين كُثر، عملوا على نحو خلاق وحرَ من أجل تحرير البشرية وإغناء حياتهم اليومية معًا. وقد ساعدت النظرة العلمية على التحكم في الظواهر الطبيعية والتخلص من الحاجة والندرة، والاعتماد على التخطيط العقلاني للتنظيم الاجتماعي، والتحرر من اللاعقلانية والخرافة، والدين والأسطورة، ومن الاستخدام المتعسف للسلطة. فالحداثة "كمفهوم "لم توجد في لحظة تاريخية محددة في أوربا الغربية، وإنما استغرقت عدة قرون حتى بلغت مرحلة النضج، ومن هذه الزاوية التاريخية، تشير الدراسات أن "الحداثة "ليست قرارًا سياسيًا أو نظرية وضعها فيلسوف، وإنما واقع تاريخي وتطور فكري وسياسي واجتماعي وحضاري شامل، بلغت من خلاله المجتمعات الأوربية درجة من التقدم في التاريخ الحديث والمعاصر (هارفي، ٢٠٠٥، ص١٠ – ٣٠).

وقد أشار أوجست كونت في مشروعه حول دراسة المجتمعات إلى استخدام مفهوم "الوضعية Positivism" في دراسة المجتمع علميا، وقد شخص التطور الاجتماعي تاريخيا وفقا لتطور الفكر والمعرفة إلى ثلاث مراحل: الأولى هي المرحلة اللاهوتية، وهي المرحلة التي تتحدد فيها مكانة الفرد في المجتمع من خلال االإله. والمرحلة الثانية: الميتافيزيقية وهي امتداد المرحلة اللاهوتية والتي اعتقد الناس فيها بأن الله كائن أو قوة مجردة تعمل على توجيه وتحديد الأحداث في العالم، والمرحلة الثالثة: الوضعية والمعروفة بالمرحلة العلمية التي تعبر عن التفسير العلمي القائم على الملاحظة والتجربة والمقارنة، وعلى ذلك فإن الحداثة من وجهة نظر كونت قد بدأت بمرحلة الوضعية كأساس للبحث العلمي في دراسة المجتمعات، بينما الرأسمالية عملت كقوة رئيسية للنظام الاجتماعي.

ووفقا لرؤية هابرماس Jürgen Habermas تعد الحداثة من وجهة نظره عملية الانتقال من النظام الاجتماعي التقليدي/ الإقطاعي، إلى النظام الاجتماعي الرأسمالي، في إطار المشروع الكبيرحول التصنيع والعلمنة والعقلنة. فعلى مستوى النظام الاجتماعي؛ نشأت في كنف الحداثة نظمًا اجتماعيةً خاصة، ردًا على تعليم التنوير، وكذلك كإنعكاس للتداعيات الاجتماعية التي نتجت عن الرأسمالية والتصنيع، حيث حدث التقدم المستمر للعلوم والتقنيات والتقسيم العقلاني للعمل الصناعي، أبعاد التغير المستمر وتفكك العادات والثقافة التقليدية، على مستوى الحياة الاجتماعية. كما

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

برزت مظاهر المجتمع الحديث: كالتمركز الحضري، وتطور وسائل الاتصال والإعلام بشكل هائل، وقد تشكل بالتزامن معها، ممارسات اجتماعية ونمط حياة اتسم بالتغير والتجديد، والاعتماد على الذاتية والقلق والتوتر والأزمة وعدم الاستقرار من ناحية أخرى. علاوة على ذلك، فقد أدى التقسيم الاجتماعي للعمل إلى انقسامات سياسية عميقة عبرت عنها الصراعات الاجتماعية التي توالت عبر القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن ثم تشكلت نظم اجتماعية ذات صفة خاصة في حقبة الحداثة.

كما أشار أنتوني جيدنز أن القرن السابع عشر هو بداية الحداثة، وأن المجتمع الأوربي كان مختلفا خلال هذه الفترة عما كان عليه قبلها. وقد تطورت الحداثة نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل المؤسسية: كالرأسمالية الصناعية، والمراقبة والسيطرة على المعلومات للدولة القومية، وتطوير القوة العسكرية. وفقًا لرؤية جيدنز، فإن استيعاب وفهم هذه المعضلة المعقدة يتطلب وجود نظرية اجتماعية جديدة لفهم طبيعة المجتمع الجديد. ويمكن تمييز المجتمع الحديث عن مجتمع ما قبل الحداثة من عدة نواحٍ أهمها: أن المجتمع الحديث أكثر ديناميكية مقارنة بمجتمع ما قبل الحداثة، وأن وتيرة التغير في المجتمع الحديث أكبر من وتيرته في المجتمع السابق، وأن طبيعة المؤسسات الحديثة تختلف تماما عما كانت عليه من قبل. فالخصائص المميزة لحضارة الحداثة هي: الدولة القومية، والنظام السياسي الحديث، وأساليب الانتاج شديدة التقدم التكنولوجي، وظهور العمل المأجور، وتسليع جميع العلاقات، بما في ذلك القوى العاملة، والتحضر. يؤكد جيدنز، المجتمع الحديث يتسم بتوحيد وعولمة الوقت، وهذا يتيح للناس التفاعل مع بعضهم البعض ومع العالم المحيط بهم دون قيود، وأن كل تطور جديد يزيد من مساحة التفاعل الاجتماعي. لقد كانت المؤسسات الاجتماعية: مثل الأسرة، والأقارب، والتعليم، والسياسة جزءًا لا يتجزأ من المجتمع المحلي في وقت سابق، وقد نما المجتمع مع هذه المؤسسات عبر العصور، ولكن مع قدوم الحداثة انفصلت هذه المؤسسات عن المجتمع المحلي. وقد حدد جيدنز بعض الآليات المساعدة على التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث وأهمها: الأولى الرموز الرمزيه، وهي وسيلة تبادل يمكن نقلهابين الأفراد والمؤسسات، واعتبر النقود هي أفضل مثال للتبادل الرمزي. أما الآلية الثانية فهي **"النظام الخبير"**، ويتمثل في ظهور الخبراء من المهندسين والأطباء، والمعلمون، والمعماريون الذين يديرون المجتمع (جيدنز، ٢٠٠٥، ص٧٢).

لقد تطورت الحداثة عبر ثلاثة مراحل تاريخية، وفق تصنيف معظم المفكرين عبر دراساتهم، يمكننا عرض هذه الفترات التطور للحداثة بشكل موجز على النحو الآتي:

١) **الحداثة المُبكرة**، وتمتد من (١٤٥٣إلى ١٧٨٩) منذ ميكيافيللي Niccolò Machiavelliإلى جون لوك - John Locke في الفلسفة السياسية. وقد أسماها البعض بالحداثة الأولية أو البسيطة، وتتمظهر في عقلنة Rationalizations الحياة

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الاجتماعية، كانت المجتمعات الغربية تتجه نحو التصنيع والتقدم الاقتصادي، معتمدة على التوجه العلمي والتقني باعتباره الوسيلة الوحيدة لرفاهية المجتمعات (دولة الرفاة). وقد أشار هايزنبرج أن هذه الحداثة العقلانية ليست نموذج، بل هي سمات حياتية معولمة، وهذه الحداثة البسيطة والجديدة تمثل في بدايتها نمط حضاري جديد في مقابل نمط قديم "تقليدي"، حيث تغلغلت في جميع أنشطة الحياة الإنسانية (الاقتصادية، والثقافية، والفنية ... الخ). هذه الحداثة الأولية حملت إيديولوجيا أخلاقية قائمة على التغير وفردنة الأخلاق. وعلى ذلك، فهي تمثل قطيعة فكرية وأخلاقية بالنسبة للمجتمعات التقليدية والمعتقدات اللاعقلانية التي أسست لنمط حياة مختلف عن السياق السابق بكل مجالاته (الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، وغيرها). كما تتسم الحداثة الأولية بالعقلانية بداية من أفكار التنوير الغربي، وقد أسماها "أوجست كونت" الأنبياء الجدد، متخذة مبدأ لا إله إلا العقل، باعتباره الآداة التي تقضي على الجهل والعوائق التي تقف ضد المعرفة العلمية. لقد كانت المجتمعات التقليدية – ما قبل القرن التاسع عشر- يتم تفسير المخاطر والشرور بقوى غير عقلانية، أي تعزى المشكلات إلى الطبيعة، وإلى الآلهة، والشياطين، والسحر أو الى الخرافات.

٢) **الحداثة الكلاسيكية**، وتمتد من (١٧٨٩ إلى ١٩١٤) من خلال) كتابات كل من: رينيه ديكارت René Descartes إلى راسل.(Bertrand Russell . وقد أطلق عليها **الحداثة الصناعية**؛ نظرا لمصاحبتها للثورة الصناعية. وفي هذه المرحلة تطورت المعرفة العلمية، ومن ثم التكنولوجيا، وقد تضاءلت عملية التعامل السياسي والاقتصادي مع المخاطر التقليدية والمحتملة للتكنولوجيا، أي أن العمل على اكتشافها والتحكم فيها، أو الإقرار بوجودها وتجنبها. وقد شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين نموا اقتصاديا سريعا من ناحية والاتجاه نحو بناء عقد اجتماعي قائم على الديموقراطية، وفي تلك الفترة حدث تقدم كبير في مجال المعرفة التكنولوجية، سيما في مجالات الكيمياء والطب والعلوم، وتغلغلهم في مختلف نشاطات المجتمع، الأمر الذي أعقب ذلك تفاقم مشكلات ومخاطر جديدة، ومن ثم محاولة النظر إلى طبيعة التطور وما صاحبه من مشكلات عن طريق محاولات نقد الذات والوقوف على مصادر انتاج تلك المخاطر والشرور، وبالتالي الانتقال إلى مرحلة تطورية جديدة للحداثة ذاتها أطلق عليها الحداثة الانعكاسية، على اعتبار أن الحداثة الانعكاسية هي السبب والمسبب على حد تعبير "أنطوني جيدنز"

٣) **الحداثة المتأخرة**، وتمتد من (١٩٠٠ إلى ١٩٨٩) من قبل المفكرين المعاصرين مثل: هايدجرMartin Heidegger ، كارل بوبرKarl Popper ، ودريدا Jacques Derrida، وفوكو Michel Foucault، وهابرماس Jürgen Habermas، وأنتوني جيدنزAnthony Giddens ، وأولريش بيك Heinrich

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

Beck، وزيجمونت باومان .Zygmunt Bauman . وفي بداية الثمانينيات والتسعينيات تفاقمت المخاطر بشكل كثيف باعتبارها " محتوى اجتماعي"، وبدأت فكرة التوزيع الاجتماعي للمخاطر: كالحوادث التكنولوجية الكبرى، والحروب، والتضخم ، والتلوث البيئ الضخم، وثقب الأوزون، وتغير المناخ، وانتشار الأوبئة، والأمراض التي لايمكن التنبؤ بهاكمرض الإيدز، وجنون البقر، وأنفلونزا الطيور، ووباء كورونا الحالي، وصعود الأصوليات الدينية، والإرهاب، انتقلت تلك المخاطر إلى مخاطر فردية تهدد الحياة الفردية " فرديانية المخاطر" في جميع مجالات حياته؛ نتيجة التقدم السريع في مجالات المعرفة التكنولوجية والعولمة، وأصبح التأثير لهذا التغير مباشرا وعميقا على حياة البشر (زايد ، ومحيي الدين، ٢٠١٠، ص ٩٥).

ثالثا: الحداثة الانعكاسية "الماهية والخصائص"

لقد أسست فترة ما قبل الحداثة نوع من "تجاوز الماضي" حول الدين، وأن المجتمعات الحديثة قد قلبت هذا المنطق إلى تجاوز المستقبل من خلال التحرر، وستكون ما بعد الحداثة هي اللحظة التي لايكون فيها التعالي أمرا منطقيا (علة، ورشيد جلود، ٢٠٢٣، صص ٣٩-٥٣). وتشير الحداثة الانعكاسية إلى فترة من التطور الاجتماعي، حيث يتسم المجتمع بزيادة الوعي النقدي حول الممارسات الاجتماعية والمؤسسات. ووفقا لرؤية أولريش بك، فالحداثة الانعكاسية هي مواجهة المجتمع الصناعي مع نفسه من خلال نموذج المخاطر، أي أن الانعكاسية هي نوع من الصراع يسهم في هيكلة النقد المعاصر للحداثة، ويحدد معالم حداثة أخرى. كما قدم أولريش بك تحليلا سوسيولوجيا للحداثة الانعكاسية يؤكد فيه على أنها توزيع ذاتي ومشكلة ذاتية للمجتمع الصناعي في حد ذاته (Bertucci, 2009, P. 44).

في هذا السياق، يصبح الأفراد أكثر اهتمامًا بتحليل كيفية بناء هوياتهم وكيفية تأثير المؤسسات الاجتماعية عليهم. يُعد مفهوم الحداثة الانعكاسية جزءًا من النظرية التي قدمها أنتوني غيدنز، حيث يتجه المجتمع نحو فهم أعمق لممارساته الاجتماعية وتفاعلاته (Giddens, 1991, p. 57). فالحداثة الانعكاسية تتأمل ذاتها، والتأمل يعني الاكتشاف والتحكم والإقرار بالوجود ومحاولة تجنب المخاطر. ويقصد بمجتمع المخاطر: ذلك المجتمع الذي أدى فيه نمو المعرفة إلى خلق حالة من عدم اليقين، فتطبيقات المعرفة والعلوم أدى إلى إنتاج تكنولوجي متقدم، ومن ثم انتاج مخاطر قوية. وهناك فروق جوهرية بين المجتمع الصناعي، ومجتمع المخاطر، فالمجتمع الصناعي كان يهدف في الأساس إلى إنتاج الثروة والسلع وتوزيعها، أما مجتمع المخاطر فتركيزه الأساسي على كيفية إدارة الشرور والأضرار والأخطار وتوزيعها. فالحداثة الانعكاسية، مزيج من الاستمرار والانقطاع الذي أدى بدوره إلى النقد العلمي الذي تمارسه حركات الخضر. وهي تعبر عن تفكك كل من: العقل الجمعي، والطبقة

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الاجتماعية، والأسرة والأدوار الأسرية، والنظم والمؤسسات الرسمية (Popoveniuc, 2013, P. 207). وللتوضيح -على سبيل المثال - إذا كان ماكس فيبر قد حدد طبيعة الطبقة الاجتماعية في كل من: نظام السوق، والمكانة الاجتماعية، والهيبة او السلطة كمحددات لطبقة الفرد ومكتنته الاجتماعية، فإنه في فترة الحداثة الانعكاسية قد بدأت هذه النظم تتفكك مكوناتها في: محدودية الفرص الاقتصادية التي ينتجها السوق، وفاعلية التراث وأساليب الحياة المرتدة البسيطة، والوعي بالروابط الاجتماعية، ومن ثم إضفاء الطابع الفردي على صور اللامساواة الاجتماعية، وعلى هذا الأساس تتحول السيرة الطبقية إلى سيرة انعكاسية.

وفي مجتمع الرفاة، أصبحت قرارات الفاعلين هي الموجه الحقيقي للتفاعلات الاجتماعية، الأمر الذي يتعين على كل فاعل اجتماعي أن يعظم من اهتمامه بمخاطر الاختيار بين ذلك الكم من الهويات، وأساليب الحياة والآراء والجماعات والثقافات الفرعية المتباينة. أي التحول من الانتماء للطبقة والانفصال عن شبكات الدعم الاجتماعي التقليدية التي تكفلها الأسرة أو الجيرة، والنزوع إلى الفردانية. وفي هذه الحالة الجديدة، يفتقد العمل أهميته كمحدد للهوية وأساس للصراع، كما تتضح أهمية الهويات الإثنية (كالنوع، والعمر، والقومية) كعناصر لتشكيل أساليب الحياة والتصورات الذاتية الجديدة، وتحل محل صور الانتماء الطبقي السابقة على حد قول كارل ماركس " رأسمالية بلا طبقات". إنه عصر بتسم بأشكال جديدة من التعاون، هذا هو التحديث الانعكاسي.

وعلى ضوء ما سبق، يرتبط مفهوم الحداثة الانعكاسية بمفاهيم مثل "الوعي النقدي" و"التفكير في تأثيرات المؤسسات الاجتماعية" (Heller, 1984, p. 50). في هذا السياق، يمكن أن يصبح الأفراد أكثر قدرة على تحليل تجاربهم وهوياتهم وتفحص كيفية تأثير القيم الاجتماعية والثقافية على حياتهم. ومن هنا، تعد مفاهيم الانعكاسية والحداثة الانعكاسية مفاهيم مهمة لفهم التغيرات الاجتماعية وتأثيراتها على الأفراد والمجتمعات. وفي حين أن الانعكاسية تساعد الأفراد على فهم وتحليل هوياتهم وتجاربهم الاجتماعية بشكل نقدي، فإن الحداثة الانعكاسية تمثل فترة من زيادة الوعي النقدي حول الممارسات الاجتماعية وتفاعلاتها.

رابعا: المقاربات السوسيولوجية لمفهوم الانعكاسية

تعد الانعكاسية (Reflexivity) مفهومًا مركزيًا في علم الاجتماع الحديث، حيث تمتد جذورها إلى الفلسفة، لكنها تطورت لتكون جزءًا أساسيًا من التحليل الاجتماعي. وتختلف وجهات النظر لعلماء الاجتماع حول مفهوم الانعكاسية بناءً على السياقات التاريخية والثقافية لكل عالم، وتبقى مسألة اختيار الأفضل تعتمد على السياق المحدد الذي يتم تطبيقه فيه. ومع ذلك، يمكن تحليل مدى قرب كل من هذه الرؤى إلى الواقع الحداثي الحالي بناءً على بعض العوامل:

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

١) رؤية ميشيل فوكوه حول الانعكاسية

عالج ميشيل فوكوه مفهوم "الانعكاسية" في كتابه الكلمات والأشياء (١٩٦٦) في إطار شرحه لفكرة "الأنساق المعرفية" (Episteme). ووفقا لرؤية فوكو، تتعلق الانعكاسية بكيفية تشكيل المعرفة وتأثير النظم المعرفية على فهم الواقع، موضحا كيفية تطوير الأنساق المعرفية عبر الزمن، ومبينا أن المعرفة ليست مجرد انعكاس للواقع بل تشارك في تشكيله، فالمعرفة وفقا لوجهة نظره عملية بنائية تتأثر بالإطار الفكري والثقافي في كل فترة زمنية (Foucault, 1966, P. 40). وتعكس الأنساق المعرفية التي يطرحها ميشيل فوكوه فهمًا عميقًا للتغيرات في المعرفة عبر الزمن. في العصر الحديث، حيث تتزايد التغيرات في المعرفة والتكنولوجيا. ويظل مفهوم الأنساق المعرفية ملائمًا لفهم كيف أن النظم الفكرية تتغير باستمرار وكيف تؤثر على شكل المعرفة، كما أوضح كيف أن التغيرات في المعرفة ليست مجرد انعكاسات للواقع، بل هي بناءات معقدة تتأثر بالسياقات الثقافية والفكرية. هذا الإطار يمكن أن يكون مفيدًا في تحليل كيف يتم تشكيل المعرفة وتحديثها في عالم سريع التغير(Foucault, 1966, P. 75).

وقد استعرض ميشيل فوكوه في كتابه الكلمات والأشياء (١٩٦٦) **مفهوم الانعكاسية** من خلال تحليل تطور المعرفة والعلم عبر التاريخ، وقدم فوكو إطارًا فلسفيًا سلط الضوء على كيفية تتغير طرق التفكير والتصورات العلمية على مر الزمن وكيف يؤثر هذا التغيير على فهمنا للمعرفة. وقد ركز فوكو على فكرة "التمثيل" و"النظام المعرفي" كجزء من تحليله للانعكاسية، حيث أشار إلى كيف أن النظم المعرفية ليست مجرد انعكاسات للواقع ولكنها تساهم في تشكيله. ويمكن فهم رؤية فوكوه حول الانعكاسية من خلال مجموعة الآراء النظرية الآتية:

- **التمثيل والمعرفة**: لقد أوضح فوكو في أعماله العلمية كيف أن الأنظمة المعرفية في مختلف الفترات التاريخية تعيد تشكيل فهمنا للواقع من خلال عمليات التمثيل، مشيرا إلى أن المعرفة ليست مجرد انعكاس للواقع ولكنها عملية بناء يتم من خلالها تمثيل الواقع بطرق مختلفة، وتتغير حسب السياق الثقافي والفكري. وقد أطلق فوكو على هذه العمليات عملية "التمثيل المعرفي"، حيث أن الكلمات والأشياء تشكل واقعنا من خلال بناء نظم معرفية معينة (Foucault, 1966, p. 30). وقد اعتبر فوكوه أن الأنساق المعرفية (Episteme) تمثل الإطار الفكري الذي يحكم كيفية تصور المعرفة وتنظيمها في فترة معينة. وقد استخدم مصطلح "الأنساق المعرفية" للإشارة إلى النظام الكلي الذي يشكل كيفية فهم العالم وكيفية تصنيف المعلومات، مؤكدا على أن هذه الأنساق ليست ثابتة، بل تتغير بمرور الوقت مع تطور الفكر العلمي والثقافي.
- **الأنساق المعرفية**: قدم فوكو فكرة "الأنساق المعرفية" التي تتعلق بكيفية تطور طرق التفكير عبر الزمن، مؤكدا على أن الأنساق المعرفية تتغير وتتطور، مما يؤثر

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

على كيفية فهمنا للعالم من حولنا، فهي ليست ثابتة بل تتغير وتتشكل بمرور الوقت من خلال عمليات اجتماعية وفكرية معقدة (Foucault, 1966, p. 50). كما اعتبر أن تلك الأنساق المعرفية عالمية، تتطور وتتحول عبر التاريخ. وأوضح كيف أن الأنساق المعرفية تغيرت من فترة "الأنظمة التقليدية" إلى فترة "الأنظمة الحديثة" وكيف أن كل فترة تاريخية لها نسقها المعرفي الخاص الذي يشكل أسس التفكير العلمي والثقافي. وقد ميز فوكوه بين الأنساق المعرفية والنظريات التقليدية للمعرفة. ففي حين تؤكد النظريات التقليدية على المعرفة كانعكاس مباشر للواقع، يؤكد فوكو أن الأنساق المعرفية تشكل فهمنا للواقع من خلال تنظيم وتصنيف المعلومات بطرق معينة، كما أنها تساهم في تشكيل كيفية تفسيرنا للمعرفة والواقع (Foucault, 1966, p. 75)

- **الأرشيف والتمثيل**: ناقش فوكو مفهوم **"الأرشيف"** كمجموعة من القواعد والممارسات التي تحدد كيفية تنظيم المعرفة وتفسيرها، وقد أشار إلى أن الأرشيفات ليست مجرد تجميع للمعلومات ولكنها تشكل كيفية تفكير الأفراد والمجتمعات في المعرفة والواقع. هذه الأرشيفات تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل المعرفة وتحديد ما هو مقبول أو غير مقبول في كل فترة زمنية (Foucault, 1966, p. 50).

وقد وجهت بعض الانتقادات لوجهة نظر ميشيل فوكوه حول الانعكاسية من أهمها:

- التأثيرات الفلسفية: تؤكد رؤية فوكو على أن المعرفة ليست مجرد انعكاس للواقع بل تشارك في تشكيله. هذه الفكرة تساهم في تجاوز النظريات التقليدية التي تعتبر المعرفة انعكاسًا موضوعيًا للواقع. من خلال التركيز على التمثيل والمعرفة كعمليات تشكيلية، يفتح فوكو المجال لفهم أعمق للتفاعل بين المعرفة والواقع.
- التحديات المنهجية: بينما توفر رؤية فوكو إطارًا متقدمًا لفهم الانعكاسية، فإنها تواجه تحديات في التطبيق العملي. التركيز على الأرشيفات والأنساق المعرفية يمكن أن يجعل من الصعب تحديد كيفية تأثير هذه العوامل على البحث العلمي بشكل ملموس. قد تكون هناك صعوبة في تطبيق هذه الأفكار في الدراسات الميدانية التي تتطلب منهجيات أكثر تحديدًا.
- المساهمة في الدراسات الاجتماعية: تساهم رؤية فوكو في تعزيز الوعي بكيفية تأثير النظم المعرفية على فهمنا للواقع. من خلال تحليل الأنساق المعرفية والأرشيفات، يوفر فوكو أدوات لفحص كيفية تشكيل المعرفة وتأثيرها على الفهم الاجتماعي والثقافي. هذه المساهمة تساعد الباحثين على التفكير بشكل نقدي في كيفية تأثير السياقات الفكرية على المعرفة والبحث.

٢) رؤية ستيف وولجار النظرية حول الانعكاسية

يعد ستيف وولجار (Steve Woolgar) فيلسوف وأحد أبرز العلماء في مجال دراسات العلوم والتكنولوجيا (STS)، وقدم إسهامات مهمة حول مفهوم الانعكاسية، خاصة فيما يتعلق بتأثيرها على البحث العلمي والمعرفة العلمية. وقد عالج ولجار

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

مفهوم الانعكاسية من منظور يعيد التفكير في كيفية فهم العلماء والمجتمع لعملية إنتاج المعرفة العلمية، وما يتطلبه من وعي ذاتي ونقد للممارسات العلمية. ويمكننا توضيح رؤيته حول الانعكاسية من خلال مناقشة بعض القضايا التي طرحها على النحو الآتي:

- **الانعكاسية كجزء من دراسة المعرفة العلمية**: يرى وولجار أن الانعكاسية تمثل أداة ضرورية لفهم عملية إنتاج المعرفة العلمية. في كتابه المشترك مع برونو لاتور "المعمل والحياة العلمية اليومية"، تناول كيف أن العلماء يجب أن يكونوا واعين بالكيفية التي تؤثر فيها ممارساتهم الشخصية والاجتماعية على النتائج التي يصلون إليها. وتعني الانعكاسية من وجهة نظر مبدا رئيسي من مبادئ إنتاج المعرفة، ولم يقتر دورها كآداه من أدوات البحث فقط، بل هي مبدأ أساسي في تحليل كيفية إنتاج وتداول المعرفة (Latour & Woolgar, 1979, p. 89).
- **الانعكاسية وتحدي الموضوعية العلمية**: لقد شدد وولجار في أعماله العلمية على أن العلم ليس نشاطًا موضوعيًا بالكامل، بل هو ميدان متأثر بالسياقات الاجتماعية والثقافية. بالتالي، فإن الانعكاسية تتحدى المفهوم التقليدي للموضوعية العلمية، حيث يرى أن الباحثين يجب أن يعترفوا بالتأثيرات الذاتية والاجتماعية على أعمالهم (Woolgar, 1988, p. 22). يعتبر وولجار أن الانعكاسية هي وسيلة لفهم كيف أن المعرفة العلمية هي نتاج اجتماعي، وليس مجرد انعكاس للواقع الموضوعي.
- **الانعكاسية والتفسير السوسيولوجي**: في دراساته حول العلوم، جادل وولجار أن الباحثين يجب أن يكونوا "انعكاسيين" حول موقعهم في البنية الاجتماعية، وكيفية تأثير ذلك على تحليلهم وتفسيرهم للبيانات. كما أوضح أن الانعكاسية تتطلب فحصًا مستمرًا لكيفية تأطير الأسئلة البحثية وتحليل النتائج في ظل القيم الاجتماعية والعلمية السائدة (Woolgar, 1988, p. 45).
- **السخرية الانعكاسية** (Reflexive Irony): من المفاهيم المميزة التي قدمها وولجار هو مفهوم "السخرية الانعكاسية" (Reflexive Irony)، وهو نقد ذاتي للانعكاسية نفسها. يرى وولجار أن حتى عندما يكون الباحثون واعين بالتحيزات والتأثيرات الذاتية، فإن هذا الوعي ذاته يمكن أن يكون مصدرًا جديدًا للتحيز. وبالتالي، فإن الانعكاسية تتطلب أن تكون قادرة على فحص ذاتها بشكل مستمر (Woolgar, 1988, p. 66).

وقد طرح ستيف وولجار مفهوم "**الاستبطان الحميد** benign introspection" ، وهو مفهوم يشير إلى فكرة أن الباحثين يمكنهم أن يكونوا انعكاسيين، أو مدركين لتأثيراتهم الذاتية، لكنهم يفعلون ذلك بشكل سطحي أو غير نقدي. هذا النوع من الاستبطان لا يذهب إلى العمق المطلوب لفهم التأثيرات البنيوية والثقافية على البحث، بل يكتفي بتقديم وعي محدود حول الذات وتأثيراتها. وقدم

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

وولجار فهما نظريا للاستبطان الحميد من خلال توضيحه لبعض القضايا النظرية أهمها:

- **الانعكاسية السطحية**: حيث يعبر يشير مفهوم "الاستبطان الحميد" إلى نوع من الانعكاسية التي تبدو وكأنها تمارس النقد الذاتي، لكنها في الواقع لا تدخل في التحليل العميق للتأثيرات الاجتماعية والثقافية المعقدة على البحث، فبدلًا من فحص العوامل البنيوية والمفاهيمية التي تؤثر على إنتاج المعرفة، يكتفي الباحث بالنظر إلى تأثيراته الفردية أو الشخصية فقط.
- **نقد الانعكاسية البسيطة**: يرى وولجار أن هذا النوع من الانعكاسية غير كافٍ لأنه يخفق في تحليل البنية الأعمق للمعرفة، إذ يتجاهل كيف تُبنى الحقائق العلمية في سياقات اجتماعية، وبالتالي فإن "الاستبطان الحميد" هو انعكاسية منقوصة لأنها لا تتجاوز مستوى الوعي الفردي.
- **مقارنة مع السخرية الانعكاسية**: على عكس "السخرية الانعكاسية" التي تقر بأن كل محاولة للانعكاسية قد تكون مشوبة بتحيزات جديدة، يعتبر "الاستبطان الحميد" نوعًا من الممارسة الانعكاسية المحدودة، التي تحاول الحفاظ على نوع من الموضوعية أو السيطرة على تأثير الذات، دون فحص عميق أو مستمر.

وقد قدم البعض من الباحثين نقداً إلى فكرة الاستبطان الحميد، حيث أشاروا إلى أن وولجار اعتبر الاستبطان الحميد نوع من التفكير الذي قد يبدو وكأنه نقد ذاتي، لكنه في الحقيقة غير كافٍ لأنه لا يدخل في عمق التأثيرات التي تؤطر كيفية بناء المعرفة. كما أنه في العلوم الاجتماعية، قد يؤدي هذا إلى تجاهل كيفية تشكيل المجتمع للبحث العلمي نفسه، وكيف أن الباحث لا يمكن أن يكون محايدًا بشكل كامل.

وانطلاقا مما سبق، تعد رؤية ستيف وولجار حول الانعكاسية واحدة من الإسهامات المهمة في دراسات العلوم والتكنولوجيا، حيث يعيد صياغة مفهوم الانعكاسية كأداة لفهم كيفية إنتاج المعرفة العلمية وتداولها. من خلال التحدي الذي يطرحه لفكرة الموضوعية العلمية التقليدية، وإبراز دور الانعكاسية جوهريًا في تحليل العلاقة بين العلماء، الممارسات الاجتماعية، والنتائج العلمية.

٣) رؤية برونو لاتور حول مفهوم الانعكاسية في العلم

يعد برونو لاتور (Bruno Latour) أحد أبرز المفكرين في مجال دراسات العلوم والتكنولوجيا (STS) وتحديداً في تحليله لكيفية إنتاج المعرفة العلمية. وقد قدم في عمله "العلم في الفعل" (Science in Action, 1988)، رؤية نقدية لمفهوم الانعكاسية في العلم ويعيد صياغة هذا المفهوم في إطار اجتماعي وتفاعلي أوسع، حيث عالج الانعكاسية كجزء من عملية بناء المعرفة العلمية، وجادل بأن العلم ليس مجرد مرآة تعكس الواقع، بل هو ميدان لتفاعل متبادل بين البشر وغير البشر (العناصر المادية والعناصر التكنولوجية) ويتبادلان بطريقة سيميوتية.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

وتتضح رؤية برونو لاتور حول الانعكاسية في العلم من خلال مناقشته لمجموعة من القضايا النظرية، يمكن توضيحها على النحو الآتي:

- **العلم كعملية غير ثابتة:** يرى لاتور أن العلم ليس عملية ثابتة أو موضوعية تمامًا. بدلاً من ذلك، العلم هو عملية ديناميكية يتفاعل فيها الباحثون مع عوامل اجتماعية، وسياسية، وتقنية. وتعني الانعكاسية في نظره وعي الباحثين بأنهم ليسوا منفصلين عن العملية العلمية، بل هم جزء من شبكة معقدة تؤثر وتتأثر بالعوامل المحيطة بهم (Latour, 1988, p. 7).
- **الانعكاسية كعملية مستمرة**: حيث يشدد لاتور على أن الانعكاسية ليست نقطة نهاية في البحث، بل هي عملية مستمرة، تتطلب من العلماء إعادة تقييم مواقفهم وتفاعلاتهم بشكل دائم. وأكد على أن العلم لا يصل إلى الحقائق النهائية، بل هو دائمًا في حالة تطوير وتعديل وفقًا للعلاقات المتبادلة بين الباحثين والتكنولوجيا والعوامل الاجتماعي الخاصة بهم (Latour, 1988, p. 15).
- **الانعكاسية والمعرفة الاجتماعية**: أكد لاتور على أن الانعكاسية ترتبط بشكل وثيق بكيفية بناء المعرفة الاجتماعية، وأشار أن الباحثين يجب أن يكونوا مدركين لتأثيراتهم الذاتية والاجتماعية على البحث العلمي، وأن العلم ليس معزولاً عن القوى الاجتماعية، والسياسة، والاقتصاد، وبالتالي فالانعكاسية تعني أن العلماء يجب أن يفحصوا كيف تتأثر أبحاثهم بهذه القوى (Latour, 1988, p. 37).
- **الانعكاسية اللونية** (Colorful Reflexivity): من أهم الإسهامات التي قدمها برونو لاتور في سياق تحليله لانتاج المعرفة، ابتكاره لمفهوم "الانعكاسية اللونية" كأحد المفاهيم الرئيسية التي قدمها لاتور في النقاش حول الانعكاسية، حيث يصف هذا المفهوم بأن الانعكاسية لا يمكن أن تكون موضوعية بشكل كامل، فهي تأتي بألوان وتدرجات مختلفة حسب السياق الاجتماعي، والثقافي، والسياسي الذي يعمل فيه العلماء. وأكد لاتور على أن هناك تنوع في ألوان الانعكاسية، مشيرا إلأى أن الانعكاسية ليست عملية أحادية اللون (أو محايدة)، بل هي "ملونة" بالتجارب، والقيم، والتحيزات التي يأتي بها العلماء أنفسهم إلى طاولة البحث، هذه الألوان تأتي من تأثيرات البيئة الاجتماعية والعلاقات التي يعمل فيها الباحثون (Latour, 1988, p. 45).

وقد نظر برونو لاتور إلى **الانعكاسية الملونة باعتبارها عملية اجتماعية**: حيث أوضح أن "الانعكاسية اللونية" تعني أن الباحثين يجب أن يعترفوا بأن نتائجهم البحثية ليست مجرد انعكاسات مباشرة للواقع، بل هي نتاج لتفاعل معقد بين الفاعلين (الباحثين وغير الباحثين)، والأدوات، والعوامل الاجتماعية. لذا، لا يمكن فهم العلم على أنه عملية نقية أو محايدة بالكامل، بل هو دائمًا ملون بالعوامل الاجتماعية والذاتية (Latour, 1988, p. 52).

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

وقد قدم برونو لاتور نقدا إلى مفهوم الانعكاسية التقليدية التي قدمها من سبقوه من علماء الاجتماع، حيث أشار إلى أن فكرة الانعكاسية التقليدية التي تسعى إلى تحقيق "الحياد الموضوعي" في العلم هي فكرة تتجاهل التفاعلات المعقدة التي تساهم في إنتاج المعرفة. وبدلاً من ذلك، اقترح لاتور أن العلماء يجب أن يحتضنوا فكرة أن علمهم ملون بالعلاقات الاجتماعية، وأن هذا اللون ليس عيبًا، بل هو جزء أساسي من العملية العلمية (Latour, 1988, p. 66).

وعلى ذلك، تتمحور رؤية برونو لاتور حول الانعكاسية في العلم حول الفكرة بأن العلم ليس عملية موضوعية ومحايدة تمامًا، بل هو دائمًا متأثر بالعوامل الاجتماعية والثقافية والتفاعلات البشرية. كما أوضح عدم أحادية الانعكاسية، معتبرا أن هناك أنماط متنوعة منها،و من ثم صك مفهوم "الانعكاسية اللونية" ليعبر عن هذه الفكرة بوضوح، كما شدد لاتور على أهمية اعتراف العلماء بأن أبحاثهم ملونة بالتجارب الفردية والتأثيرات الاجتماعية. هذه الرؤية تشكل تحديًا للفهم التقليدي للموضوعية العلمية وتفتح المجال لتحليل أكثر عمقًا للعلاقات المعقدة التي تحكم إنتاج المعرفة العلمية.

٤) رؤية ليز ستانلي حول الانعكاسية

تعد ليز ستانلي (Liz Stanley) واحدة من الباحثات البارزين في مجال السوسيولوجيا، واهتمت بشكل خاص بمفهوم الانعكاسية (Reflexivity) في البحث الاجتماعي. تعتبر رؤيتها جزءًا من التقاليد الفكرية التي تركز على العلاقة بين الباحث والمجتمع المدروس، وتأثير الوعي النقدي على العملية البحثية نفسها. ويمكن عرض رؤيتها حول الانعكاسية على النحو الآتي:

- **الانعكاسية كأداة نقدية**: أشارت ليز ستانلي أن الانعكاسية ليست مجرد وعي ذاتي للباحث بل هي أداة نقدية تساعد في تقييم عمليات البحث نفسها، وتعني الانعكاسية عند ستانلي القدرة على إدراك كيف تؤثر الخلفيات الاجتماعية والثقافية للباحثين على موضوع البحث، مما يتطلب مراجعة نقدية مستمرة لأدوارهم كمنتجين للمعرفة (Stanley, 1993, p. 53).
- **الانعكاسية وتحدي الموضوعية:** عارضت ستانلي المفهوم التقليدي للموضوعية العلمية الذي يفصل بين الباحث وموضوع الدراسة، ووفق رؤيتها النظرية، اعتبرت الانعكاسية ضرورية لفهم أن الباحث جزء لا يتجزأ من الواقع الذي يدرسه، وأن القيم والتوجهات الشخصية تؤثر على البحث. وبالتالي، فإن على الباحث أن يتعامل مع تأثيراته الذاتية بشكل واضح وشفاف (Stanley, 1990, p. 61).
- **الانعكاسية في البحث النوعي: أكدت** ستانلي على أهمية الانعكاسية في البحث النوعي، حيث يعتمد الباحث على تفسير البيانات أكثر من جمعها بشكل كمي. تعتقد أن

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الانعكاسية تمنح الباحث القدرة على استكشاف التحيزات الكامنة في ممارسات البحث والتحليل، مما يساهم في تقديم نتائج أكثر دقة وعمقًا (Stanley, 1993, p. 74).
ومن الأمثلة التطبيقية التي طبقت فيها ليز ستانلي الانعكاسية: استخدامها للانعكاسية بشكل كبير في أبحاثها التي تناولت السيرة الذاتية والبحث النسوي، حيث استندت عليها كأداة رئيسية لتحليل كيفية تشكل الذكريات والتجارب الشخصية في سياقات اجتماعية مختلفة، مع إدراك أن هذه الذكريات ليست مجرد انعكاسات بسيطة للواقع، بل هي متأثرة بتفاعلات القوى الاجتماعية والتاريخية (Stanley, 1992, p. 106).
وبناء على ذلك، فإن رؤية ليز ستانلي حول الانعكاسية تتجاوز مجرد الوعي الذاتي لتشمل نقدًا جذريًا للممارسات البحثية التقليدية، واعتبارها للانعكاسية كأداة لفهم التأثير المتبادل بين الباحث والمبحوث، مما يدفع نحو إعادة التفكير في كيفية إنتاج المعرفة في العلوم الاجتماعية.

٥) رؤية أنتوني جيدنز حول الانعكاسية

يُعَدّ عالم الاجتماع البريطاني أنتوني غيدنز أحد أبرز المفكرين الذين تناولوا هذا المفهوم، وقد ساهم بشكل بارز في توضيحه وتطويره ضمن إطار نظريته عن الحداثة المتأخرة. يناقش جيدنز الانعكاسية كعملية معرفية ونقدية تمكن الأفراد والمجتمعات من مراجعة قراراتهم وأفعالهم وتكييفها مع العالم المتغير من حولهم.
لقد قدم أنتوني جيدنز مجموعة من التحليلات المهمة بالتعاون مع أولريش بك وسكوت لاش حول: عواقب الحداثة (١٩٩٠)، والتحديث الانعكاسي (١٩٩١)، والحداثة والهوية الذاتية (١٩٩١)، وتحول العلاقة الحميمية (١٩٩١)، كما قدم سكوت لاش مؤلف علمي بعنوان " علم اجتماع ما بعد الحداثة"، وقد فتحت تلك الإسهامات العلمية نقاشات كثيرة حول فكرة الحداثة والتحديث الانعكاسي. وبعد بلورة نظرية "البنينة Structurism' "، كان الاهتمام الرئيسي لأنتوني جيدنزتطوير منذ بداية التسعينيات تطوير فكرة ما أطلق عليه " الحداثة المتأخرة". وقد أشار جيدنز إلى أن المؤسسات وأنماط السلوك التي تم تأسيسها في أوروبا ما بعد الإقطاعية، أصبحت في القرن العشرين على نحو متزايد ذات طابع تاريخي عالمي في تأثيرها. ويمكن فهم "الحداثة" على أنها تعادل تقريبًا "العالم الصناعي" ، طالما تم الاعتراف بأن التصنيع ليس بعدًا مؤسسيًا فقط. وقد ذكر جيدينز مفهوم الحداثة في كتابه الدولة القومية والعنف (١٩٨٥)، وقدم في بداية التسعينيات تحليلا أكثر تماسكا للمجتمع المعاصر، أوضح فيه الخصائص المميزة للمؤسسات الحديثة و الخصائص المحددة للأفراد الحداثيين وهويتنا الذاتية والعلاقات المتبادلة في أعماله العلمية حول الحداثة والهوية الذاتية، وتحول العلاقات الحميمية.
تعريف جيدينز للإنعكاسية: يرى جيدينز أن الانعكاسية ليست مجرد عملية عقلية فردية، بل هي ظاهرة اجتماعية تحدث داخل الهياكل المؤسسية والثقافية. وقد رأى أن

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الانعكاسية في العصر الحديث تختلف عن السابق، حيث أصبحت أكثر مركزية في الحياة اليومية بسبب تسارع التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية والسياسية. هذه الانعكاسية الحديثة تجعل الأفراد دائمًا في حالة مراجعة وتقييم مستمر لقراراتهم وأفعالهم، بناءً على التدفق المستمر للمعلومات الجديدة التي تتطلب إعادة تقييم مستمر (Giddens, 1991, p. 20). لقد عالج جيدينز الانعكاسية في كتابه Modernity and Self-Identity (١٩٩١) من منظور مختلف، فالانعكاسية بالنسبة له، جزء أساسي من الحداثة والهوية الذاتية. وقد ركز جيدينز على كيف أن الأفراد في العصر الحديث يعيدون تقييم هوياتهم وسلوكياتهم من خلال عملية الانعكاسية المستمرة. يرى جيدنز أن الانعكاسية تعزز من القدرة على التفكير النقدي والتكيف مع التغيرات الاجتماعية (Giddens, 1991, P. 85). ويمكن توضيح رؤية جيدينز حول الانعكاسية من خلال رؤيته للقضايا النظرية الآتية:

- **الانعكاسية في سياق الهوية الذاتية**: يوضح جيدينز الانعكاسية في اطار الهوية الذاتي على اعتبار أنها حالة تتناسب بشكل جيد مع الواقع الحداثي، حيث يسود التركيز على الفردانية والهوية الشخصية في عالم معقد ومتعدد. وقد أبرز جيينز أهمية الانعكاسية في عملية تشكيل الهوية الفردية، وهذا يتماشى مع الاتجاهات المعاصرة التي تشدد على كيفية تطور الذات وتفاعل الأفراد مع التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية، حيث يعاد تشكيل الهوية باستمرار في المجتمع الحديث تحت تأثير وسائل الإعلام والتكنولوجيا.
- **الانعكاسية والحداثة المتأخرة:** وفقًا لجيدينز، ترتبط الانعكاسية بشكل مباشر بمفهوم "الحداثة المتأخرة(Late Modernity) "، وهو العصر الذي نشهده اليوم، حيث تكون الأبنية الاجتماعية والسياسية أقل استقرارًا من العصور السابقة. وجادل جيدينز بأن التحولات السريعة في العالم تتطلب من الأفراد أن يكونوا أكثر وعيًا بأفعالهم وتأثيرها على الآخرين، وكذلك كيفية تأثرهم بالظروف الاجتماعية. في هذا السياق، لا تُعتبر الانعكاسية مجرد خيار، بل ضرورة لمواكبة التعقيد المتزايد في العالم الحديث (Giddens, 1990, p. 36) .
- **الانعكاسية كآلية للتحكم الذاتي**: أحد الجوانب الرئيسية للانعكاسية هو أنها تمكن الأفراد من ممارسة ما يُسمى "التحكم الذاتي(Self-regulation) "، حيث يقوم الأشخاص بمراجعة تصرفاتهم بناءً على التغذية الراجعة التي يتلقونها من البيئة المحيطة. يشير غيدنز إلى أن الأفراد في العصر الحديث أصبحوا مبرمجين على إعادة التفكير في تصرفاتهم باستمرار من أجل تعديل سلوكياتهم وفقًا للتغيرات الاجتماعية والثقافية التي يواجهونها يوميًا .(Giddens, 1991, p. 38)
- **الانعكاسية والمخاطر في المجتمع الحديث**: يناقش جيدينز أيضًا كيف أن الانعكاسية في المجتمع الحديث ترتبط بشكل كبير بمفهوم المخاطرة. ففي حين كان

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الأفراد في المجتمعات التقليدية يواجهون مخاطر ثابتة نسبيًا، مثل المخاطر الطبيعية أو الصحية، فإن المجتمع الحديث يخلق أشكالًا جديدة من المخاطر تتطلب مستوى أعلى من الوعي والانعكاسية. على سبيل المثال، القضايا المتعلقة بالتغير المناخي والتكنولوجيا الحيوية والاقتصاد العالمي تتطلب من الأفراد والمجتمعات مراجعة مستمرة لمواقفهم وتصوراتهم تجاه هذه التحديات .(Giddens, 1999, p. 45)

- **الانعكاسية والمؤسسات الاجتماعية**: الانعكاسية في المجتمعات الحديثة ليست مقتصرة على الأفراد فقط، بل تشمل المؤسسات أيضًا، فالمؤسسات الاجتماعية: كالحكومات والشركات، تجد نفسها في حاجة إلى تعديل سياساتها واستراتيجياتها باستمرار للتكيف مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية. وقد جادل جيدينز أن المؤسسات الحديثة تمارس الانعكاسية من خلال تحليل البيانات وتقييم نتائج السياسات وإجراء التعديلات اللازمة لمواكبة الاحتياجات المتغيرة للمجتمع (Giddens, 1991, p. 50).

وبناء على ذلك، تعد الانعكاسية كسمة مميزة للحداثة المتأخرة من وجهة نظر جيدينز عنصرًا حاسمًا في فهم الديناميات الاجتماعية في العصر الحديث، حيث لم تعد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قائمة على الأبنية الثابتة، بل أصبحت تعتمد على عمليات مستمرة من التقييم وإعادة التقييم، وهذا ما يجعل الانعكاسية ليست فقط وسيلة لفهم العالم، بل أيضًا آلية للتكيف مع التغيرات التي تطرأ على المجتمع بشكل دائم.

٦) رؤية سكوت لاش حول مفهوم الانعكاسية

يعد سكوت لاش Scott Lash أحد أبرز علماء الاجتماع البريطانيين المعاصرين، وقد ساهم بشكل كبير في النقاشات حول الحداثة وما بعدها، خاصة في ما يتعلق بمفهوم "الانعكاسية Reflexivity"، الذي يعتبر عنصرًا مركزيًا في فهم التغيرات الاجتماعية في العالم المعاصر. كما قدم سكوت لاش رؤية مميزة حول الانعكاسية، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتحولات في الحداثة المتأخرة، وتحديدًا في ما يسميه "الحداثة الانعكاسية Reflexive modernity . وتماشيا مع رؤية زميله جيدينز، لقد ربط سكوت لاش بين التحولات الحداثية الجديدة ومفهوم الانعكاسية، فقد أشار إلى أن الحداثة المتأخرة تتميز بتزايد مستويات الانعكاسية، حيث يصبح الأفراد والمجتمعات أكثر وعيًا بالعمليات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تشكل حياتهم اليومية. في هذا السياق، لا تتعلق الانعكاسية بوعي الأفراد بذواتهم فقط، بل أيضًا بالقدرة على تحليل وتقييم الهياكل الاجتماعية والعالم الذي يعيشون فيه (Lash, 1994, p. 121). وقد رأي سكوت لاش أن الأفراد في المجتمعات الحديثة لا يتبعون القواعد التقليدية بشكل أعمى، بل يقومون بتقييم تلك القواعد بشكل انعكاسي، مما يؤدي إلى المزيد من الحرية الفردية ولكن أيضًا إلى المزيد من عدم اليقين.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

وقد أشار سكوت لاش إلى وجود **نوعين** مختلفين من الانعكاسية في المجتمعات الحديثة هما: **الانعكاسية المعرفية** والانعكاسية الجمالية، وقد ميز بينهما. الانعكاسية المعرفية (Cognitive Reflexivity): وتعني القدرة على تحليل وفهم العالم الاجتماعي بشكل عقلاني، وغالبًا ما ترتبط بالبحث العلمي والمعرفة التقنية. أما **الانعكاسية الجمالية** (Aesthetic Reflexivity): فهي تشير إلى شكل أكثر حرية وغير تقليدي من الانعكاسية، حيث يسعى الأفراد إلى التعبير عن هوياتهم بطرق غير تقليدية، وفي هذا النوع من الانعكاسية، يصبح الإبداع والجمال جزءًا من فهم الذات وتشكيل الهوية، بدلاً من مجرد الالتزام بالمعايير العقلانية (Lash, 1994, p. 128). وقد قدم سكوت لاش فكرته حول مفهوم الانعكاسية باعتبارها مميزة للحداثة المتأخرة من خلال بعض القضايا النظرية أهمها:

- **نقد الحداثة والتقدم العلمي**: قد رأى سكوت لاش أن التقدم العلمي والتكنولوجي في المجتمعات الحديثة لا يمكن فهمه فقط من خلال التفكير العقلاني التقليدي، حيث أكد على أن هناك جوانب جمالية وثقافية تشكل المعرفة العلمية والتكنولوجيا. وفي هذا السياق، تسمح الانعكاسية للعلماء والمفكرين على فهم أن التكنولوجيا والعلم ليسا فقط أدوات حيادية، بل هما منتجات اجتماعية وثقافية تشكلها الهياكل والقيم الاجتماعية (Lash, 1994, p. 134).
- **العلاقة بين الحداثة الانعكاسية والمخاطر**: لقد اتفق سكوت لاش مع أنتوني جيدينز حول علاقة الحداثة المتأخرة ببروز المخاطر الكونية، فقد اعتبر لاش أن الحداثة الانعكاسية مرتبطة بتزايد المخاطر وعدم اليقين. في العالم المعاصر، معتبرا أن الأفراد قادرون على تحليل وتقييم المخاطر التي يواجهونها، كما أصبح الخطر عنصرًا مركزيًا في الحياة اليومية. هذه الفكرة تتماشى مع أعمال علماء آخرين مثل أولريش بيك Ulrich Beck، حيث يرون أن الحداثة الانعكاسية تعني أننا ندرك المخاطر ولكننا لا نستطيع بالضرورة التحكم بها (Stanley, 1990, p. 61).
- **الانعكاسية والهوية**: أشار سكوت لاش إلى أن الانعكاسية في المجتمعات الحديثة تؤدي دورًا كبيرًا في تشكيل الهوية الشخصية، ففي حين كان الأفراد في المجتمعات التقليدية يعتمدون على الأبنية الاجتماعية الثابتة (مثل الدين أو العائلة) لتشكيل هوياتهم، فإن الحداثة الانعكاسية تجعل الهوية مشروعًا فرديًا يتطلب التقييم والتعديل المستمر، ويؤدي ذلك إلى حالة من "السيولة" في الهوية، حيث يصبح الأفراد أكثر حرية في اختيار هوياتهم، ولكنهم أيضًا يواجهون مزيدًا من عدم الاستقرار (Lash, 1994, p. 145).

ويتضح مما سبق، أن رؤية سكوت لاش حول الانعكاسية تعكس التحولات العميقة في المجتمعات الحديثة، حيث لم يعد الأفراد مقيدين بالتقاليد والأبنية الثابتة، بل أصبحوا أكثر وعيًا وتحليلاً للحياة الاجتماعية، فالانعكاسية هنا ليست مجرد وعي

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

ذاتي، بل هي عملية متواصلة من التفاعل مع العالم الاجتماعي، ما يؤدي إلى تغيير دائم في المعرفة، والهوية، وحتى في فهم واستيعاب المخاطر.

٧) رؤية يورجن هابر ماس حول الانعكاسية

يورجن هابرماس، الفيلسوف الألماني وعالم الاجتماع البارز، يُعد واحدًا من أهم المفكرين في القرن العشرين. تركزت أعماله على مسائل العقلانية، والديمقراطية، والتواصل، والحداثة، حيث سعى إلى تقديم أطر تحليلية لفهم العمليات الاجتماعية والسياسية والثقافية. وتعد رؤيته لمفهوم الانعكاسية جزء من مشروعه الأوسع لفهم كيفية تفاعل الأفراد مع المجتمع الذي يعيشون فيه وكيفية تحقيق التواصل العقلاني بين الأفراد في المجتمع. لقد قدم منظورًا فريدًا يركز على العلاقة بين الانعكاسية والتواصل العقلاني. ومن هذا المنظور فقد ربط مفهوم الانعكاسية بالتواصل النقدي والعقلاني، حيث رأى أن الانعكاسية هي القدرة على النقد الذاتي والتفكير في الأسس المعرفية والقيمية التي تقوم عليها الممارسات الاجتماعية واللغوية. ويرى أن هذا النقد الذاتي يجب أن يتم من خلال عملية تواصلية تسعى إلى التوافق والتفاهم المتبادل بين الأفراد .(Habermas, 1984, p. 42)

لقد عالج هابر ماس الانعكاسية في كتابه The Theory of Communicative Action (١٩٨١) في سياق "العمل التواصلي" والنقد الفلسفي للمجتمع، وقد رأى أن الانعكاسية ترتبط بعملية التفاعل الاجتماعي والتواصل بين الأفراد، فالانعكاسية بالنسبة له عنصر أساسي في تحقيق الفهم المشترك والتواصل الفعّال في المجتمع، كما ركز على كيف أن التفاعل العقلاني والتواصل يمكن أن يعزز من فهم المشكلات الاجتماعية وإصلاح الأنساق الاجتماعية (Habermas, 1981, P. 120). لقد ركز هابرماس على أهمية الفهم المشترك والحوار في المجتمع الحديث الذي يتسم بتزايد التواصل، حيث اعتبر التواصل الفعّال والشفافية أساسية لحل المشكلات الاجتماعية والسياسية. وبذلك، تسلط رؤيته الضوء على أهمية الانعكاسية في تحسين التواصل وتعزيز الفهم المتبادل، مما يعزز من تطبيقاتها في المجالات الاجتماعية والسياسية الحالية، ويمكن توضيح وجهة نظره حول الانعكاسية من خلال القضايا النظرية التي تشكل نموذجه النظري على النحو الآتي:

أ- **الفعل التواصلي والانعكاسية:** ناقش هابر ماس في كتابه نظرية الفعل التواصلي " (The Theory of Communicative Action)، العلاقة الترابطية بين الفعل التواصلي والانعكاسية، تلك العملية التي تُركز على الحوار المفتوح بين الأفراد لتحقيق التفاهم المتبادل، وأكد أن الانعكاسية تتجلى عندما يتمكن الأفراد من مراجعة معتقداتهم وأفعالهم بشكل نقدي في ضوء النقاشات التواصلية، ويفهم من وجهة نظر هابرماس أن الانعكاسية ليست مجرد عملية فردية، بل تتطلب إطارًا اجتماعيًا يتسم بالتفاعل والحوار(Habermas, 1984, p. 58). ومن هنا، يعد "الفعل التواصلي"

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

حجر الزاوية في فلسفة هابرماس، حيث يركز على فكرة أن التواصل بين الأفراد يجب أن يقوم على أسس عقلانية لتحقيق الفهم المتبادل، مؤكدا على أن التفاعل بين الأفراد يمكن أن يكون وسيلة لتعزيز التفكير النقدي والانفتاح على الأفكار الجديدة، الأمر الذي يُمكّنهم من فحص معتقداتهم وممارساتهم بشكل انعكاسي. وقد جادل هابر ماس بأن الفعل التواصلي يتطلب الانعكاسية، أي قدرة الأفراد على مراجعة مواقفهم ومعتقداتهم في إطار تفاعلي. على سبيل المثال، يمكن للفرد أن يراجع رأيه حول قضية ما بناءً على حجج يطرحها شخص آخر خلال نقاش (Habermas, 1984, pp. 52-53). 2.

ب-**الانعكاسية والعقلانية التواصلية :** يعتقد هابرماس أن التواصل الفعّال يتطلب نوعًا خاصًا من العقلانية أطلق عليها "العقلانية التواصلية (Communicative Rationality)"، وهي تختلف عن العقلانية الأداتية التي تركز على تحقيق أهداف محددة بطريقة فعالة، فالعقلانية التواصلية تهتم بالتوافق والتفاهم من خلال الحوار العقلاني. وخلال هذا الحوار العقلاني، ترتبط الانعكاسية هنا بقدرة الأفراد على التفكير في مواقفهم الخاصة وأخذ مواقف الآخرين بعين الاعتبار، الأمر الذي يسمح لهم بتحسين فهمهم للمسائل التي يتم النقاش بشأنها، ويتطل ذلك قدرة على النقد الذاتي والتعامل مع الحجج المقدمة من الآخرين بشكل مفتوح (Habermas, 1984, p. 67). ومن هذا المنظور، يرى هابرماس أن الانعكاسية لا تكتمل إلا من خلال ما يسميه بـ "العقلانية التواصلية (Communicative Rationality)." وهي عملية يسعى من خلالها الأفراد إلى التفاهم عبر الحوار والنقاش العقلاني، يتعلم الأفراد من خلالها أن يفكروا في مواقفهم الذاتية ويفحصوا مبرراتهم وأفكارهم على نحو أكثر نقدية (Habermas, 1984, p. 112). هذا النوع من العقلانية يعتمد على الانفتاح والشفافية في الحوار، مما يعزز من قدرة الأفراد على تحقيق رؤية نقدية لأنفسهم وللعالم من حولهم .

وقد شدد هابر ماس على أهمية تطبيق الانعكاسية في العلوم الاجتماعية، حيث اعتبر النهج النقدي والانعكاسي جزءًا أساسيًا من منهجية البحث، وأكد على أن الباحثين في العلوم الاجتماعية يجب أن يكونوا قادرين على فهم السياقات الاجتماعية والسياسية التي تؤثر على موضوعات بحثهم، ويتطلب ذلك قدرة الباحث على مراجعة افتراضاته المسبقة والانفتاح على مراجعة آرائه في ضوء النقاش الأكاديمي والنقد العلمي (Habermas, 1987, p. 147).

ج- **الانعكاسية والنقد الاجتماعي:** يشمل مشروع هابرماس النقد الاجتماعي الذي يعتمد على الانعكاسية لفهم وتحليل البنى الاجتماعية التي تؤثر على تفاعلات الأفراد، فقد اعتبر الانعكاسية جزءًا من مشروع أوسع للنقد الاجتماعي، حيث يسعى إلى تحليل البنى الاجتماعية التي تعوق التواصل الحر والعقلاني، وقد ركز هابرماس على فكرة

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

أن الانعكاسية تُمكّن الأفراد والمجتمعات من فهم القيود الأيديولوجية التي تفرضها الأنظمة الاجتماعية والسياسية، وأن هذه القدرة على النقد الذاتي تمكن الأفراد على تغيير الأبنية الاجتماعية لتحقيق مزيد من العدالة والحرية (Habermas, 1987, p. 92). لقد أكد هابر ماس على أن خاصية الانعكاسية للأفراد تُعزز من قدرتهم على تفكيك الأسس الأيديولوجية التي تتحكم في ممارساتهم وتؤثر على الفهم الجمعي. كما عوَّل كثيرا على إمكانية النقد العلني والتفكير الجماعي لتغيير الأبنية الاجتماعية والسياسية، ما يعني أن الانعكاسية ليست مجرد أداة فردية بل لها بعد اجتماعي يمكّن الأفراد من العمل على تغيير مجتمعهم نحو الأفضل (Habermas, 1987, pp. 105-106).

د- **الانعكاسية والديمقراطية:** أوكد هابرماس أن الديمقراطية الحقيقية تتطلب مستويات عالية من الانعكاسية، حيث يُتاح للأفراد الفرصة لمناقشة قضاياهم بحرية وبصورة عقلانية، وقد اعتبر الحوار العام والانفتاح على الأفكار المختلفة شرطًا أساسيًا لبناء مجتمع ديمقراطي يمكن فيه للمواطنين المشاركة بشكل فعّال. من خلال هذا المنظور، جادل هابرماس أن الانعكاسية تعزز القدرة على تشكيل رأي عام عقلاني، ما يسمح للمواطنين بأن يكونوا على دراية بالقرارات السياسية والاجتماعية التي تؤثر على حياتهم، وبأن يشاركوا في هذه القرارات بناءً على تفكير نقدي (Habermas, 1996, p. 35).

ه- **الانعكاسية في إطار الحداثة وما بعدها:** يميز هابرماس بين مفهومين للحداثة: الحداثة كعقلانية أداتية تهتم بالإنتاج والكفاءة، والحداثة كتواصل عقلاني يركز على الفهم المتبادل والبحث عن الحقيقة. الانعكاسية عند هابرماس مرتبطة بالحداثة الثانية، حيث يرى أن المجتمع الحديث يحتاج إلى تجديد قدرته على النقد والتفكير الذاتي لضمان استمرار العقلانية • .بالنسبة له، الحداثة هي مشروع لم يُكتمل بعد، والانعكاسية هي جزء من هذا المشروع المستمر الذي يسعى لتحقيق المزيد من الحرية والعدالة من خلال النقد الذاتي المتواصل(Habermas, 1990, p. 62) .

و- **المجالات التطبيقية للانعكاسية وفقًا لهابرماس:** في العلوم الاجتماعية: يطالب هابرماس بأن يكون الباحث الاجتماعي واعيًا بالتحيزات الخاصة به وبالسياق الاجتماعي الذي يعمل فيه. يرى أن الانعكاسية ضرورية لفهم العلاقة بين الباحث وموضوع البحث، وبالتالي تحسين جودة التحليل العلمي .(Habermas, 1987, p. 112)

• .في الإعلام والصحافة: يشدد هابرماس على دور الإعلام في تعزيز الانعكاسية بين المواطنين من خلال توفير منصات للنقاش العام. يرى أن وسائل الإعلام يمكن أن تكون مساحة للنقد والتفكير في القضايا الاجتماعية إذا تم استخدامها بطريقة تعزز التفاعل العقلاني .(Habermas, 2006, p. 79)

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

ومن هنا، تُعدّ رؤية هابرماس لمفهوم الانعكاسية جزءًا محوريًا من فلسفته حول التواصل والعقلانية، مؤكدا على أن الانعكاسية ليست مجرد عملية داخلية يقوم بها الفرد، بل هي عملية جماعية تتجلى في النقاشات العامة والتواصل الاجتماعي. ومن خلال هذه الرؤية، يسعى هابرماس إلى تأسيس مجتمع ديمقراطي يستند إلى التفاهم المتبادل والنقد العقلاني.

خامسا: الإنعكاسية والحقل الأكاديمي " رؤية بيير بورديو نموذجا"

يعد بيير بورديو من أهم المنظرين الاجتماعيين في القرن العشري، وهو عالم فرنسيٌ، قدّم إسهامات كبيرة في تحليل البُنى الاجتماعية والقوى التي تشكل الممارسات الفردية والجماعية، مع التركيز على العلاقة بين الفاعلين الاجتماعيين والبنى الاجتماعية. وقد تناول بيير بورديو مفهوم الانعكاسية في مختلف أعماله العلمية المتقدمة، سيما Distinction: A Social Critique of the Judgment of Taste (١٩٨٤) في إطار عرضه لمفهوم "التموضع الاجتماعي"، وكيف يؤثر الوضع الاجتماعي للباحثين على إنتاج المعرفة. ووفقا لرؤية بورديو، تتعلق الانعكاسية بفهم كيف أن المواقف الاجتماعية والقيم تؤثر على البحث وتحليل البيانات، معتبرا أن الانعكاسية جزء من كيفية تشكيل المعايير والمعرفة من خلال التأثيرات الاجتماعية (Bourdieu, 1984, P. 150). ويتضح من خلال قراءة أعمال بورديو تركيزه على معالجة " التأثير الاجتماعي على البحث والمعرفة" باعتباره ذو قيمة في التحليل الاجتماعي والبحث العلمي. كما أن تركيز بورديو على كيفية تأثير الأوضاع الاجتماعية على المعرفة والبحث يعكس أهمية الوعي الاجتماعي في تفسير البيانات والنتائج، موضحا أنه في عالم اليوم تؤدي التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية دورًا كبيرًا في تشكيل المعرفة والسياسات العامة، ومن ثم توفر رؤية بورديو إطارًا قويًا لفهم كيف يمكن أن تؤثر خلفيات الباحثين وأوضاعهم الاجتماعية على النتائج العلمية للبحوث. ومن هنا، فقد اعتبر الانعكاسية Reflexivity شرطًا ضروريًا للباحث الاجتماعي الذي يسعى إلى إنتاج معرفة علمية دقيقة حول المجتمع، باعتبارها مهمة في فهم عمليات إنتاج المعرفة. ويمكننا توضيح رؤية بورديو حول الانعكاسية من خلال طروحاته حول الحقل الاجتماعي بصفة عامة، والحقل الأكاديمي على وجه الخصوص تناوله للقضايا النظرية الآتية:

١) تعريف الانعكاسية عند بورديو:

عرف بورديو الانعكاسية بأنها قدرة الباحث الاجتماعي على النقد الذاتي، وعلى تفكيك دور السياقات الاجتماعية التي تؤثر على إنتاج المعرفة. يرى بورديو أن العلماء الاجتماعيين ليسوا محايدين، بل هم جزء من البنية الاجتماعية التي يدرسونها. من هنا تأتي أهمية الانعكاسية كأداة لفهم تأثير مواقفهم وتجاربهم الشخصية على أبحاثهم .(Bourdieu, 1992, p. 68)

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

٢) الانعكاسية وعلاقتها بالحقل الاجتماعي

شكلت مجموعة من المفاهيم النظرية الرؤية العامة لبيير بورديو، ومن أهم هذه المفاهيم: الفعل ، والبنية، والحق، والهابيتوس، ورأس المال الرمزي إلى جانب كتلة كبيرة من المفاهيم الأخرى التي صكها لتشكل في مجموعها الإطار العام لنظريته حول المجتمع. وانطلاقا من رؤيته النظرية العامة، اعتبر بورديو الحقل الاجتماعي Fieldساحة من العلاقات الاجتماعية التي يتمتع فيها الفاعلون بمستويات متفاوتة من رأس المال الاجتماعي والثقافي والرمزي، وقد أكد بورديو أنه يجب على الباحثين أن يكونوا واعين بحقولهم الاجتماعية، وأن يفهموا تأثير هذه الحقول على طريقتهم في رؤية العالم وتحليل الظواهر الاجتماعية، فالعلوم الاجتماعية من وجهة نظره ليست محايدة أو موضوعية بالكامل، بل هي نتاج لمواقف اجتماعية محددة للباحثين الذين يعملون في هذا المجال؛ لذلك فقد انتقد بورديو الفكرة السائدة بأن الباحث يمكن أن يكون مستقلاً تمامًا عن موضوع بحثه. ومن هذا المنطلق، فقد أكد على التزام الباحث العلمي بقاعدة الانعكاسية، وأهمية تطبيقها؛ لفهم كيفية تأثير وضعهم الاجتماعي على أبحاثهم وتحليلاتهم (Bourdieu & Wacquant, 1992, p. 94). وقد اعتبر بورديو الانعكاسية، في هذا السياق الأداة الفعالة التي تمكّن الباحثين من فهم كيفية تأثير مواقفه الاجتماعية على طرق التفكير والتحليل التي يستخدمونها. وقد ناقش أهمية تفكيك دور الذاتية في العمل العلمية من خلال ما عرضه في كتابه Science of Science and Reflexivity، معتبرًا أن الباحثين يجب أن يكونوا قادرين على نقد افتراضاتهم وأن يعترفوا بتأثير خلفياتهم الاجتماعية على طرقهم في إنتاج المعرفة (Bourdieu, 2004, p. 32).

٣) الانعكاسية والهابيتوس: الفهم النقدي للذات

يعد مفهوم الهابيتوس Habitus أحد المفاهيم المركزية في نظرية بورديو، وهو يشير المفهوم إلى مجموعة الأنماط العقلية والمواقف الثقافية التي تتشكل لدى الأفراد عبر تجربتهم الحياتية، أي مجموعة العادات والتصرفات التي يكتسبها الفرد نتيجة تربيته الاجتماعية وتجربته الحياتية، ويُعتبر الهابيتوس جزءًا لا يتجزأ من فهم كيفية تكوين رؤيتنا للعالم، حيث يؤثر على كيفية تفسيرنا للظواهر الاجتماعية. ووفقا لرؤية بورديو، فإن الهابيتوس يتسلل إلى جميع جوانب حياة الأفراد، بما في ذلك الطريقة التي ينتجون بها المعرفة العلمية. ويربط بورديو بين الانعكاسية ومفهوم الهابيتوس، فالانعكاسية هي العملية التي يحاول من خلالها الباحث أن يفهم كيف يؤثر الهابيتوس الخاص به على مقاربته البحثية، ولا يعني هذا الفهم بالضرورة تجاوز تأثير الهابيتوس، ولكنه يمكن الباحث من رؤية التحيزات التي قد تكون خفية في عمله العلمي، وهو ما يعزز من موضوعية البحث. على سبيل المثال، إذا كان الباحث ينتمي إلى طبقة اجتماعية معينة، فإن وعيه بانحيازاته قد يساعده في التعامل مع المواضيع

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

التي تتعلق بالطبقات الأخرى بشكل أكثر توازناً، فالانعكاسية تتطلب من الباحثين أن يفحصوا تأثير الهابيتوس الخاص بهم على ممارساتهم البحثية، وأن يدركوا أنهم يتأثرون بنفس القواعد الاجتماعية التي يسعون إلى دراستها (Bourdieu, 1990, p. 56).

٤) الانعكاسية كأداة لتحليل السلطة ورأس المال الرمزي

رأس المال الرمزي من المفاهيم المحورية في نموذج بورديو حول الحقل الاجتماع، ورؤوس الأموال الخاصة بالحقول الاجتماعية المختلفة. وفى طرحه لمفهوم رأس المال الرمزي، والذي يعنيه بورديو بأنه القبول أو الاعتراف، أو الاعتقاد بقوة أو بسلطة من يملك مزايا أكثر، كما اعتبره شكلا من الاعتراف بالشرعية، ومبدأ التميز أو الاختلاف في الخصائص، ومبدأ الأشكال المختلفة لرأس المال. ويدخل هذا المبدأ في مختلف الحقول، وجميع أشكال السلطة والهيمنة، أو في مختلف أشكال العلاقات (lawley, 2004: 7). ولا شك أن الحقل العلمي أحد أهم حقول رأس المال الرمزي. ويكتسب بكل نشاطاته، وباحثيه ما أسماه بورديو **المصداقية العلمية**، والتي تمكنه بعد ذلك من إعادة استثمارها لإنتاج معارف جديدة، والحصول على المزيد من المصداقية التي يؤدى تراكمها إلى رأس مال رمزي.

وقد جادل بورديو أن الانعكاسية ضرورية لفهم كيفية توزيع السلطة ورأس المال الرمزي في المجتمع، مؤكدا على أن الباحثين يجب أن يكونوا قادرين على تفكيك الأيديولوجيات الخفية التي تساهم في إعادة إنتاج علاقات السلطة؛ ذلك أن الانعكاسية ليست فقط عملية داخلية تخص الباحث، بل هي أيضاً عملية نقدية توجه نحو المجتمع الذي يُجرى فيه البحث. فعلى سبيل المثال، أشار بورديو إلى أهمية فهم كيفية تأثير المؤسسات التعليمية والثقافية على تشكيل الهابيتوس لدى الأفراد، وكيفية استخدام هذه المؤسسات لرأس المال الرمزي كوسيلة للسيطرة على الفاعلين الاجتماعيين. وهنا فإن خاصية الانعكاسية تساعد الباحث على تحليل هذه العلاقات بطريقة أكثر شفافية وتفصيلًا (Bourdieu, 1998, p. 40).

٥) الانعكاسية والنقد الاجتماعي والثقافي

تعد الانعكاسية عند بورديو جزءًا من مشروعه النقدي لفهم الأنظمة الاجتماعية، حيث يسعى إلى تحليل العلاقات بين الفاعلين الاجتماعيين والهياكل التي تحكمهم، وجادل بورديو بأن الانعكاسية تمكن الباحثين من تحدي ما هو بديهي وطبيعي في المجتمع، ومن فك شفرات الأيديولوجيا التي تحكم الأفكار والتصورات العامة، وأن هذه القدرة على التفكيك هي الأساس لأي نقد اجتماعي يسعى إلى تحقيق تغيير في بنية المجتمع .(Bourdieu, 1998, p. 15) .

ولم يقتصر تحليل بورديو على أهمية الانعكاسية في فهم الأنظمة الاجتماعية، بل تعدى ذلك إلى تطبيق خاصية **الانعكاسية على الثقافة والنقد الثقافي**، فمن خلال

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

مفهوم الانعكاسية قدم بورديو نهجًا لفهم الثقافة باعتبارها ساحة للصراع الاجتماعي، وبين كيف يمكن للباحثين أن يستخدموا الانعكاسية لفهم الأشكال الرمزية للهيمنة، مثل الأدب والفن، وكيفية توظيفها لتعزيز أو مقاومة السلطة الاجتماعية، على اعتبار أن الانعكاسية تتيح للباحثين فهم كيفية استخدام الثقافة كوسيلة لإنتاج الشرعية الاجتماعية وكيفية تأطيرها بحيث تخدم الفئات المهيمنة. على سبيل المثال، يمكن للباحثين أن يستخدموا الانعكاسية لفهم كيفية تأثير النظام التعليمي على تحديد من يعتبر "مثقفًا" أو "غير مثقف (Bourdieu, 1993, p. 45). وفي هذا السياق، فقد طور بورديو الانعكاسية في **تحليل الهيمنة الثقافية** ودور المثقفين في إعادة إنتاجها، وأكد على أهمية وعي الباحثين بكيفية مشاركة المعرفة الأكاديمية في تثبيت الوضع الراهن وفي خدمة المصالح الطبقية، والالتزام بالانعكاسية كآداة تحليلة لتفكيك هذه العمليات. فعلى سبيل المثال، تناول بورديو في كتابه Distinction كيف يتم استخدام الثقافة كأداة للتمييز الاجتماعي، ويرى أن الانعكاسية ضرورية لفهم كيفية تعزيز الفئات العليا لموقعها من خلال التمييز الثقافي (Bourdieu, 1984, p. 234).

٦) الانعكاسية والحقل الأكاديمي: فهم تأثيرات السياق المهني

انطلاقا من رؤيته التحليلية في فهم الواقع الاجتماعي قَدم بورديو رؤية متميزة للحقل الأكاديمي، حيث وصفه باعتباره مجالا اجتماعيا كغيره من الحقول الأخرى. ووفقا لخصائص الحقل عند بورديو، فإن الحقل الأكاديمي كأحد الحقول الاجتماعية في تفاعل وارتباط بالحقول الاجتماعية الأخرى، كما أنه يرتبط ويتفاعل مع السلطة، ورأس المال، وعلاقات القوى، والصراع من أجل البقاء، أو تعديل ميزان القوى. وهذه خصائص عامة وأساسية؛ وفى ذات الوقت فإن الحقل الأكاديمي يتسم بخصائص نوعية تميزه عن غيره من الحقول الأخرى، فهو حقل مستقل له قوانينه الخاصة التي تحدد آليات التفاعل الاجتماعي والأكاديمي بين أعضاء الجماعة العلمية، وكذا آليات الممارسة العلمية، وإنتاج العلم (بورديو، ترجمة مغيث، : ١١٢– ١١٣).

واستنادا إلى مفهوم الهابيتوس "نظام الاستعدادات والتصورات" يرى بورديو أن الرغبة والاستعداد العلمي لدى الباحثين والعلماء داخل الحقل الأكاديمي تمثل حالة الولع، وهي القوى المحركة لجميع أنواع الأفعال والسلوكيات. ويرى بورديو أن أي حقل علمي يستطيع الوصول إلى درجة عالية من الاستقلالية والقدرة على تشكيل قوانين ترتبط بتحديد الأنشطة والأعمال العلمية، والتي تستطيع فرض قواعد قادرة على إلزام الباحثين وخضوعهم لشروط المؤسسة، وتُمكِّنهم من تحقيق أهدافهم داخل الحقل الأكاديمي عن طريق الالتزام بطرائقه العلمية كما يحددها هو في لحظة معينة،

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

مع استخدام الحوار العلمي القائم على عرض الأدلة لإثبات صحة أو خطأ نظرية ما. (بورديو، ترجمة مغيث: ١١٤)

وفي اطار اهتمامه بالحقل الأكاديمي، طرح بورديو رؤيته حول أهمية تقييم الذات، وضرورة النظر إلى العمل العلمي من الداخل فيما أطلق عليه الانعكاسية، وقدم مؤلف مهم بعنوان " بعبارة أخرى: نحو علم اجتماع انعكاسي " حينما تحدث عن "الانعكاسية وعلم العلم" والذي هدف من خلاله تحديد الظروف الاجتماعية التي تحدد العلم حتى تتحقق الموضوعية. وإذا كان قد أكد على نسبية المفاهيم، ومن ثم القوانين، فإنه قد المح إلى التقاليد والأخلاقيات المنعكسة على العلم. وفى إشارته للظروف المجتمعية المحيطة بالعلم يتفق مع "رايت ميلز"، خاصة فيما يتعلق بالتحليل النقدي للعلاقات المتبادلة بين العلم كحقل، والحقول المجتمعية الأخرى: كالقوى السياسية، والاقتصادية المؤثرة على العلم. ولم يقتصر على التحليل النقدي للشروط الخارجية، وإنما أكد على أهمية التحليل النقدي للدراسات الجارية في العلم، وضرورة تحليل العلاقات بين التخصصات أو الحقول العلمية المختلفة. لقد كان بورديو مهتما بشكل خاص بالكشف عن الجذور البنيوية والتاريخية للعلم، وللفروق الطبقية، وبناءات السلطة وتأثيراتها على إنتاج المعرفة العلمية (Bourdieu, 2004,5).

وفي هذا السياق، جادل بورديو بأن الحقل الأكاديمي ليس محايدًا، بل هو جزء من الحقول الاجتماعية التي يتم فيها تداول رأس المال الثقافي والرمزي، كما أن الحقل الأكاديمي جزءًا من الحقول الاجتماعية التي يسعى العلماء لفهمها، لكنه في الوقت نفسه مجال ذو ديناميكيات خاصة تتطلب من الباحثين فهماً انعكاسياً لطبيعة الحقل الذي يعملون فيه، وأشار أن الحقل الأكاديمي يتأثر بالتنافس على رأس المال الرمزي، مثل المكانة العلمية والاعتراف الأكاديمي. ويتطلب البحث العلمي من الباحثين أن يفهموا تأثير هذه الديناميكيات على أبحاثهم، مشيرا إلى أن الانعكاسية في هذا السياق هي عملية نقدية يتمكن من خلالها الباحثون من تحديد كيف تؤثر المنافسة الأكاديمية على توجهاتهم البحثية ومواضيع دراستهم، فالانعكاسية هنا تعني: أن يكون الباحث واعيًا لتأثير ديناميكيات الحقل الأكاديمي على اختياراته البحثية وموضوعاته. فالباحث الذي يدرس موضوعًا ما قد يختار هذا الموضوع ليس فقط بسبب أهميته العلمية، بل أيضًا بسبب الفرص التي يوفرها له لتحقيق اعتراف في الوسط الأكاديمي (Bourdieu, 1984, p. 103).

ويمكننا توضيح رؤية بورديو حول أهمية الانعكاسية في الحقل الأكاديمي على النحو الآتي:

أ- **الانعكاسية وفهم دور الباحث كمثقف عام : حيث أكد بورديو على أن** الباحث الاجتماعي يجب أن يكون مثقفًا عامًا، يساهم في توعية المجتمع بالقوى التي تشكّله.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

والانعكاسية، في هذا السياق، تسمح للباحث بأن يفهم دوره كجزء من عمليات تشكيل الوعي الاجتماعي. ويرى أن على الباحثين أن يستخدموا موقعهم الأكاديمي لنقل معرفتهم إلى المجال العام، والمشاركة في النقاشات التي تهدف إلى تحسين الشروط الاجتماعية والسياسية. وأوضح بورديو أن هذا الدور يتطلب من الباحثين الانتباه إلى التأثيرات التي قد تمارسها خلفياتهم الفكرية والاجتماعية على مساهماتهم العامة، وأن يسعوا إلى استخدام الانعكاسية كوسيلة لتحقيق توازن بين دورهم الأكاديمي ودورهم كمثقفين في المجتمع .7 .(Bourdieu, 2001, p. 5)

ب-**العلاقة بين الانعكاسية وإنتاج المعرفة : لقد أشار بورديو في كتابه** Meditations Pascaliennes، أن الانعكاسية ضرورية لفهم العمليات التي يتم من خلالها إنتاج المعرفة العلمي، موضحا أنه يجب على الباحثين الكاديميين أن يكونوا قادرين على فحص الافتراضات المسبقة والنظريات التي تشكل أبحاثهم، كما اعتقد أن المعرفة العلمية ليست خالية من التأثيرات الاجتماعية، بل هي نتاج لعلاقات القوى داخل الحقل الأكاديمي(Bourdieu, 2000, p. 37).

ج- **الانعكاسية والنقد الذاتي في العلوم الاجتماعية: لقد أكد** بورديو على أن الانعكاسية تتطلب من الباحثين أن يكونوا قادرين على النقد الذاتي، وعلى أن يدركوا تحيزاتهم الذاتية ودوافعهم اللاواعية التي تؤثر على اختياراتهم البحثية، وقد وصف هذه العملية بأنها "الانفصال عن الذات Self-Distancing"، وهي قدرة الباحث على النظر إلى ذاته كموضوع للدراسة، الأمر الذي يمكنه يُمكنه من مراجعة أفكاره وسلوكياته بشكل أكثر موضوعية (Bourdieu & Wacquant, 1992, p. 72).

د- **إدماج الانعكاسية في منهجية البحث السوسيولوجي:** يؤكد بورديو أن الانعكاسية يجب أن تكون جزءًا لا يتجزأ من المنهجية البحثية، ويجب على الباحثين تحليل الدور الذي يؤديه موقفهم الخاص في تحديد أسئلة البحث وطريقة تحليل البيانات، مشيرا إلى أن هذا النوع من النقد الذاتي يساعد في تجنب الوقوع في فخ "العلموية " (Scientism)، أي الاعتقاد بأن المعرفة العلمية يمكن أن تكون موضوعية تمامًا. وقد قدم إطارا عمليا – من خلال كتابه An Invitation to Reflexive Sociology مع Loïc Wacquant – هذا الإطارًا بمثابة دليل يمكن للباحثين استخدامه لفحص افتراضاتهم الخاصة وتحليل الطريقة التي تؤثر بها بنياتهم الاجتماعية على أبحاثهم. فعلى سبيل المثال، أكد على أهمية تحليل العلاقة بين الباحث وموضوع البحث وكيفية تأثير موقف الباحث على تمثيل المجتمع الذي يدرسه (Bourdieu & Wacquant, 1992, p. 72).

ورغم إسهامات بورديو الكبيرة، إلا أن آرائه حول الانعكاسية واجهت بعض الانتقادات، لا سيما من قبل العلماء الذين يرون أن مقاربته النظرية تجعل من الصعب تحقيق الانفصال الكامل بين الذات والموضوع، وقد جادل بعض النقاد بأن النهج

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

الانعكاسي الذي قدمه بورديو يتطلب مستوى عاليًا من الوعي الذاتي الذي قد يكون من الصعب تحقيقه في الواقع العملي (Jenkins, 2002, p. 89). ومع ذلك، تظل رؤيته للانعكاسية أداة قوية لفهم تأثير العوامل الاجتماعية على عمليات إنتاج المعرفة.

- **الاستخلاصات: مؤشرات الانعكاسية**

الانعكاسية (Reflexivity) في علم الاجتماع تُستخدم لفهم كيفية تأثير الأفراد والمؤسسات على العالم الاجتماعي وكيف يتأثرون به. ويعد أنتوني جيدينز أحد أبرز العلماء السوسيولوجيين الذين قدموا رؤية شاملة حول مفهوم الانعكاسية ضمن نظريته عن الحداثة المتأخرة، ولكن هناك العديد من علماء الاجتماع الذين طوروا مؤشرات يمكن استخدامها لتحليل مستوى الانعكاسية لدى الأفراد والمؤسسات. هذه المؤشرات تساعد على تحديد مدى وعي الأفراد بتصرفاتهم وسلوكياتهم، وكيف يمكنهم مراجعة هذه التصرفات بناءً على التغيرات الاجتماعية والثقافية. وبعد استعراض مقاربات علماء الاجتماع لمفهوم الانعكاسية، يمكننا استخلاص أهم المؤشرات الدالة عليها في الواقع. عند علماء الاجتماع على النحو الآتي:

المؤشر الأول: الوعي بالنفس والآخر : أحد المؤشرات الأساسية للانعكاسية عند علماء الاجتماع هو مستوى الوعي الذي يمتلكه الأفراد بأنفسهم وبالآخرين. يركز هذا المؤشر على قدرة الأفراد على تحليل وفهم تصرفاتهم وكيف تؤثر على الآخرين، كما يتضمن أيضًا وعيهم بالعوامل الاجتماعية والثقافية التي تؤثر على سلوكهم. وقد أكد بيير بورديو على أن الوعي بالذات وبالعلاقات الاجتماعية يمكن أن يُعتبر انعكاسًا للعوامل البنيوية التي تؤثر على الفرد .(Bourdieu, 1990, p. 53) هذا الوعي الذاتي والنقدي يعزز قدرة الأفراد على التفكير في تفاعلاتهم بشكل نقدي

المؤشر الثاني: القدرة على النقد الذاتي: من المؤشرات الأخرى المهمة التي تناولها علماء الاجتماع هو النقد الذاتي(Self-Criticism) ، وهي قدرة الأفراد والمؤسسات على مراجعة تصرفاتهم وسلوكياتهم بشكل نقدي ومستمر. وقد أشار يورجن هابرماس أن الانعكاسية تُعد قدرة الأفراد على التفكير النقدي في المعتقدات والمعايير الاجتماعية التي يؤسسون عليها قراراتهم (Habermas, 1984, p. 66)، هذا النقد الذاتي يتيح للأفراد والمؤسسات تحسين أدائهم وتكييفه مع التغيرات المجتمعية.

المؤشر الثالث: التكيف مع التغيرات الاجتماعية: أشار العديد من علماء الاجتماع إلى أن الانعكاسية تتطلب قدرة على التكيف مع التغيرات الاجتماعية، حيث تناول

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

أولريش بيك (Ulrich Beck) هذه القضية في إطار "مجتمع المخاطر"، مؤكدا أن المجتمع الحديث يتطلب من الأفراد والمؤسسات أن يكونوا قادرين على مواجهة المخاطر الجديدة الناتجة عن التغيرات الاجتماعية والبيئية والسياسي. وتعد القدرة على التكيف مع هذه المخاطر والتحولات مؤشرًا قويًا للانعكاسية (Beck, 1992, p. 75).

المؤشر الرابع: التعلم من التجارب: يُعد التعلم من التجارب الشخصية والاجتماعية أحد أهم مؤشرات الانعكاسية، وقد ركز دونالد شون (Donald Schön) على هذا المفهوم، حيث أشار إلى أن الأفراد يطورون سلوكيات جديدة من خلال مراجعة تجاربهم السابقة والتعلم منها(Schön, 1983, p. 47) ، هذا التعلم الانعكاسي يُمَكِّن الأفراد من تحسين قراراتهم المستقبلية بناءً على الأخطاء والتحديات التي واجهوها في الماضي

المؤشر الخامس: التفاعل مع المعلومات الجديدة: في العصر الحديث، يُعد التفاعل مع المعلومات الجديدة وتحديث المعرفة باستمرار أحد المؤشرات الرئيسية للانعكاسية. وقد جادل مانويل كاستلز (Manuel Castells) كيف أن الأفراد في المجتمعات المعاصرة يعتمدون على تدفق المعلومات عبر الإنترنت ووسائل الإعلام الاجتماعي، وأن قدرة الأفراد على استيعاب هذه المعلومات وتكييف تصوراتهم بناءً عليها تمثل مؤشرًا قويًا للانعكاسية .(Castells, 1996, p. 89)

المؤشر السادس: التفكير المؤسسي إلى جانب الأفراد، : يُعد التفكير الانعكاسي على مستوى المؤسسات أيضًا مؤشرًا رئيسيًا للانعكاسي، حيث تركز المؤسسات الحديثة على تحليل نتائج السياسات والقرارات بشكل دوري من خلال التغذية الراجعة، والبيانات المتاحة، مما يمكّنها من تحسين أدائها وتكييف استراتيجياتها مع الاحتياجات الاجتماعية المتغيرة، ويعتبر أنتوني جيدينز أن هذا التفكير المؤسسي الانعكاسي ضروريًا في مجتمعات تتسم بالتعقيد والتغير السريع (Giddens, 1991, p. 45).

ويمكن تحديد بعض المؤشرات الرئيسية للانعكاسية عند الباحث السوسيولوجي من وجهة نظر بورديو

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

هذه المؤشرات تُظهر أن الانعكاسية ليست مجرد عملية فردية بل هي أيضًا عملية مؤسسية واجتماعية تهدف إلى تحسين الموضوعية والدقة في البحث العلمي .

مرجع : Bourdieu, P. (1990). The Logic of Practice. Stanford University Press.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

المراجع

أنتوني جيدينز (٢٠٠٥) علم الإجتماع.ترجمة فايز الصياغ.المنظمة العربية للترجمة.مؤسسسة ترجمان.بيروت.".

بيار بورديو(١٩٩٨) أسباب علمية. ترجمة أنور مغيث. دار الآزمنة الحديثة.

بيير بورديو (٢٠٠٢) بعبارة أخرى (محاولات باتجاه سوسيولوجيا انعكاسية)، ترجمة أحمد حسان، الطبعة الأولى، ميريت للنشر و المعلومات، القاهرة.

جناوي، عبدالعزيز (٢٠١٨) قراءة في سوسيولوجيا مخاطر الحداثة الانعكاسية، مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٣٠، مارس ٢٠١٨، السنة العاشرة، القاهرة.

جيدينز، أنتوني (٢٠١٠) الطريق الثالث: تجديد الديموقراطية الاجتماعية، تردمة أحمد زايد، ومحمد محي الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

حميدات، صالح (٢٠٢١) بيار بورديو،مقاربة انعكاسية لإبستمولوجيا العلوم الإجتماعية، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، المجلد ١٠، العدد ٣، جامعة محمد خيضر ، بسكرة، الجزائر.

هارفي، ديفي (٢٠٠٥) ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغير الثقافي، ترجمة محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

Beck, U. (1992). Risk Society: Towards a New Modernity. SAGE Publications.

Bertucci, M.-M. (2009). Place de la réflexivité dans les sciences humaines et sociales : quelques jalons. Cahiers de sociolinguistique , 43 - 55

Bloor, M., & Wood, F. (2018). Keywords in qualitative methods. SAGE Publications.

Bourdieu, P. (1990). The Logic of Practice. Stanford University Press.

Bourdieu وPierre (2002). Interventions (1961-2001). Sciences sociale et action politique.Textes choisis et présentés par Franck Poupeau et Thierry Discepolo.Agone –Marseille. France.

Castells, M. (1996). The Rise of the Network Society. Blackwell Publishers.

Finlay, L. (2020). Reflexivity: A practical guide for researchers in health and social sciences. Blackwell Publishing.

ISSN : *2537-0421* eISSN : *2537-043X*

Foucault, M. (1966). Les mots et les choses: Une archéologie des sciences humaines. Gallimard.

Foucault, M. (1966). The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences. Gallimard.

Giddens, A. (1990). The Consequences of Modernity. Political Press.

Giddens, A. (1991). Modernity and Self-Identity: Self and Society in the Late Modern Age. Stanford University Press.

Giddens, A. (1999). Runaway World: How Globalizations is Reshaping our Lives. Profile Books.

Goodman, R. (2021). Research methods in social sciences: An introduction. Routledge.

Habermas, J. (1981). The Theory of Communicative Action. Beacon Press.

Habermas, J. (1984). The Theory of Communicative Action (Vol. 1). Boston: Beacon Press.

Habermas, J. (1984). The Theory of Communicative Action. Beacon Press.

Habermas, J. (1987). The Theory of Communicative Action (Vol. 2). Boston: Beacon Press.

Habermas, J. (1990). The Philosophical Discourse of Modernity. Cambridge, MA: MIT Press.

Habermas, J. (1996). Between Facts and Norms: Contributions to a Discourse Theory of Law and Democracy. Cambridge, MA: MIT Press.

Habermas, J. (2006). The Divided West. Cambridge: Polity Press

Heller, A. (1984). The theory of modern society. Routledge.

Lash, S. (1994). Reflexive Modernization: Politics, Tradition and Aesthetics in the Modern Social Order. Stanford University Press.

Lash, S., & Beck, U. (1992). Risk Society: Towards a New Modernity. SAGE Publications.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X

Latour, B. (1988). Science in Action: How to Follow Scientists and Engineers Through Society. Harvard University Press.

Latour, B., & Woolgar, S. (1979). Laboratory Life: The Construction of Scientific Facts. Princeton University Press.

Marie-Madeleine, Bertucci. (2009). " Place de la reflexivity dans les sciences humaines et sociales:quelques jalons."Cahiers de sociolinguistique /1(n° 4),p43-55. https://www.cairn.info/revue-cahiers-desociolinguistique-2009-1-page-43.htm recuperé le 28/01/21018

Popoveniuc, Pogdan (2014) Self Reflexivity. The Ultimate End of Knowledge, Procedia - Social and Behavioral Sciences 163.

Schön, D. A. (1983). The Reflective Practitioner: How Professionals Think in Action. Basic Books.

Science Encyclopedia Science & Philosophy: Reason to Retrovirus Reflexivity - Reflexivity In Sociology, Reflexivity In Anthropology, Bibliography. “ J rank https://science.jrank.org/pages/11000/Reflexivity-Reflexivity-in-Sociology.html#ixzz7PobKTEG9”

Smith, A. (2019). Research and reflexivity: The interplay of bias and objectivity. University Press.

Stanley, L. (1990). Feminist Praxis: Research, Theory, and Epistemology in Feminist Sociology. Routledge.

Stanley, L. (1992). The Auto/biographical I: The Theory and Practice of Feminist Auto/biography. Manchester University Press.

Stanley, L. (1990). “Feminist Auto/Biography and the Production of Truth.” Feminist Praxis: Research, Theory and Epistemology in Feminist Sociology.

Stanley, L. (1993). Debates in Sociology. Routledge.

Thompson, J. B. (1990). Ideology and Modern Culture: Critical Social Theory in the Era of Mass Communication. Stanford University Press.

ISSN : ***2537-0421*** **eISSN :** ***2537-043X***

Woolgar, S. (1988). Science: The Very Idea. Tavistock Publications.

ISSN : 2537-0421 eISSN : 2537-043X